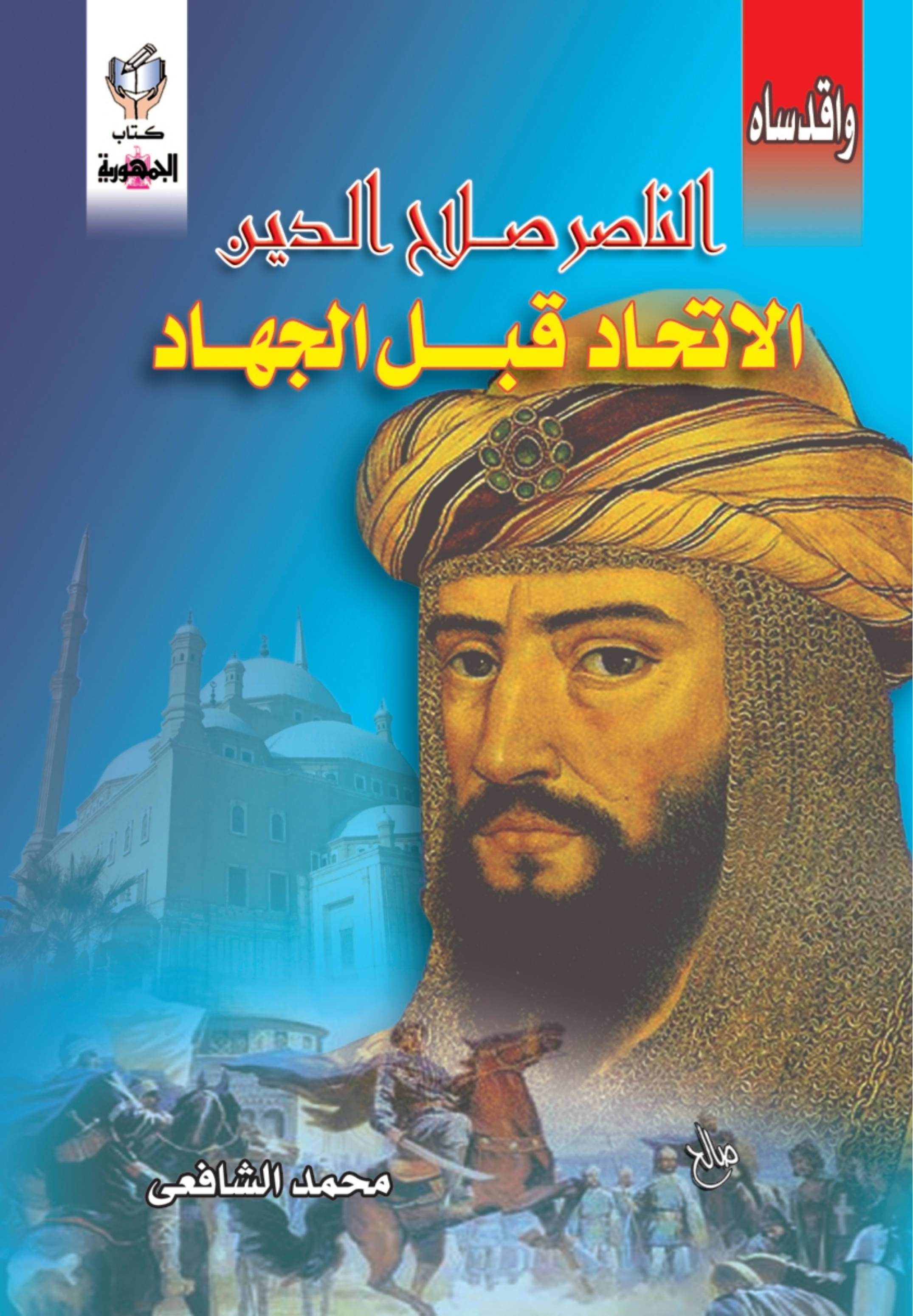


كتاب
الجمهورية
واقدساه
الناصر صلاح الدين
الاتحاد قبل الجهاد
صالح
محمد الشافعى





كتاب الجمهورية

مــارس ٢٠١٠

www.gombook.net.eg

رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير

علــى هاشــم

E-mail:alihashem@eltahrir.net

الناصر صلاح الدين..

الاتحاد قبل الجهاد

محمــد الشــافعى



١١١ ــ ١١٥ ش رمسيس
ت : ٢٥٧٨٣٣٣٣

إذا وجدت أى مشكلة
فى الحصول على
«كتاب الجمهورية»

وإذا كان لديك أى مقترحات أو ملاحظات
فلا تتردد فى الاتصال على أرقام :
٢٥٧٨٣٣٣٣ ٢٥٧٨١٠١٠

http://www.eltahrir.net

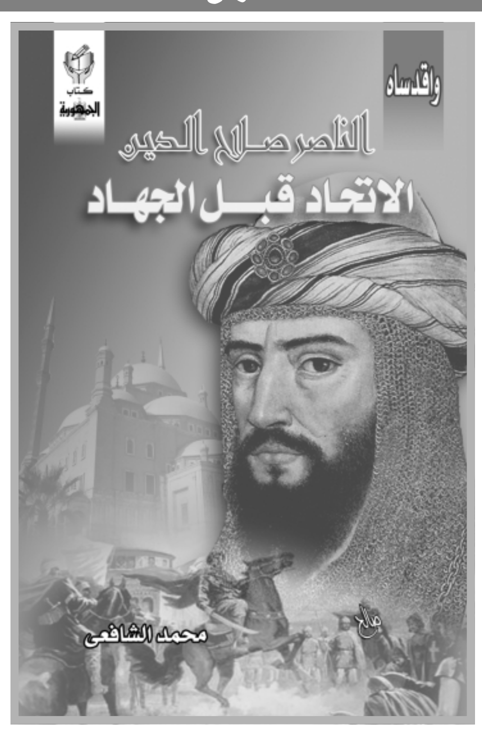
مـــــارس ٢٠١٠

أسعار البيع فى الخارج

سوريا	٢٠٠ ل.س
لبنان	٨٠٠ ل.ل
الأردن	٣ دنانير
الكويت	٢ دينار
السعودية	٢٠ ريالاً
البحرين	٢ دينار
قطر	٢٠ ريالاً
الإمارات	٢٠ درهماً
سلطنة عُمان	٢ ريال
تونس	٤ دنانير
المغرب	٦٠ درهماً
اليمن	٦٠٠ ريال
فلسطين	٤ دولارات
لندن	٤ جك
أمريكا	١٠ دولارات
استراليا	١٠ دولارات استرالية
سويسرا	١٠ فرنكات سويسرية

الاشتراك السنوى

داخل جمهورية مصر العربية ٦٠ جنيهًا
الدول العربية ٣٠ دولارًا أمريكيا
اتحاد البريد الافريقى وأوروبا
٣٨ دولارا أمريكيًا
أمريكا وكندا
٤٥ دولارا أمريكيًا
باقى دول العالم
٥٨ دولارا أمريكيًا



تصميم الغلاف الفنان :
صــــالح صــــالح

سكرتير التحرير
ســيد عبد الحفيظ

الناصر صلاح الدين..

الاتحاد قبل الجهاد

محمد الشافعى



إلى البطل البورسعيدى
سيد عسران

يا فارس الزمن الجميل
مزجت القنبلة بالرغيف
وامتطيت صهوة البطولة
لتثأر لشرف الوطن
فكيف استدار الزمان
لندخل شرنقة العجز
تمتطينا الهموم
تلهب خلايانا سياط الغاصب والخائن
فتتصاغر بطولاتنا لتصبح
مجرد رغيف

محمد الشافعى

مقـــــدمة

الإتحاد قبل الجهاد

من الظلم أن نتـعـامل مع «صـلاح الدين الأيـوبى على أنه مجرد فصل من الفصول المثيرة فى تاريخ الحروب الصليبية ضد الإسلام والمسلمين.. وذلك لأن مسيرته النضالية وأسلوبه فى الحكم وصفاته الشخصية تقدم (روشتة) شديدة الإحكام لعلاج المشاكل والصعاب.. ليس فى عصره فقط.. بل فى عصرنا الحالى أيضا.. حيث يتشابه الوضع العام للعرب والمسلمين الآن - إلى حد التماثل - مع وضعهم فى عصر «صلاح الدين».. فالتفكك والتشرذم والتصارع مشكلات تنبع من الداخل.. بينما الاحتلال والهيمنة والإساءة للإسلام ورسوله مشكلات تأتى من الخارج لتؤكد صحة الحكمة التى تقول (ما أشبه الليلة بالبارحة).. ولأننا نعيش (لحظة فاصلة) مثل التى عاشها «صلاح الدين» تماما فليس أمامنا إلا (استنساخ) الدور والإنجاز والإرادة والأهداف التى تمثلت فى هذا الرجل.. ويأتى فى مقدمة الأهداف التى يتحتم استنساخها ذلك الإصرار على الوحدة ونبذ الفرقة.. حيث يمكن تلخيص وإيجاز مشوار «صلاح الدين» فى ذلك الشعار

«الاتحاد قبل الجهاد».. فعلى مدى ثلاثين عاما تمثل رحلته مع الحرب والسياسة كان هدفه الأول يكمن فى كيفية (توحيد الأمة) لتصبح قادرة على الصمود والتصدى لتلك الهجمة العنصرية التى تجسدت فى الحملات الصليبية.. ثم العمل على ردع هذه الحملات من خلال قوة الأمة الموحدة.. ورغم أن فكرة الوحدة قد بدأت مع «عماد الدين زنكى» فإنها لم تتحول إلى واقع ملموس إلا على يد «صلاح الدين الأيوبى».. وقد نتفق أو نختلف على بعض الأساليب التى اتبعها لتحقيق هذه الوحدة.. إلا أن الإيجابيات تغلبت كثيرا جدا على السلبيات.. ليصبح توحيد العرب والمسلمين الإنجاز الأكبر لـ «صلاح الدين» خاصة أن هذه الوحدة قد تحققت عندما بدأت بذور الفرقة تدب بين صفوف الصليبيين من خلال التناحر بين قادتهم.

والتفريق بين صليبيى أوربا وصليبيى الشام مثل الذى يحدث فى إسرائيل الآن بين «الأشكيناز والسفرديم».. وقد أدى نجاح «صلاح الدين» فى تحقيق هذه الوحدة التى جعلت العرب والمسلمين قوة مرهوبة الجانب يخشى بأسها مما دفع «فيليب أغسطس» ملك فرنسا و«ريتشارد قلب الأسد» ملك إنجلترا إلى فرض ضريبة أطلق عليها اسم (ضريبة صلاح الدين) وذلك لجمع الأموال اللازمة لمحاربة «صلاح الدين» بعد معركة «حطين» واستعادة القدس..

وإذا نظرنا للعرب والمسلمين الآن نجد أن لديهم من أسباب القوة أضعاف ما كان لهم على عصر «صلاح الدين».. بما يعنى أن الوحدة هى العلاج الوحيد القادر على مجابهة مشاكل الداخل ومخاطر الخارج..

وقد انطلق «صلاح الدين» خلال رحلته لتوحيد الأمة من

فكرة عبقرية تؤكد على حتمية وجود مصر والشام فى محور واحد.. تلك الفكرة التى تعد عنوانا بارزا للأمن القومى المصرى قديما وحديثا.. فمصر بكل ما لها من قيمة وقامة تجعل منها عملاقا يصعب - بل يستحيل - حبسه داخل أربعة جدران هى حدوده الجغرافية مما يجعل النفوذ والتأثير والمكانة تتمدد أبعد من الحدود الجغرافية لتصنع حدود الأمن القومى.. وقد فطن الفراعنة لأهمية الأمن القومى المصرى ولذلك نجدهم منذ «مينا» موحد القطرين فى الأسرة الأولى الفرعونية وحتى نهاية عصر الأسرات يحرصون على مد نفوذهم إلى منابع النيل جنوبا والشام شمالا، فتلك هى حدود الأمن القومى المصرى.. وقد استطاع «صلاح الدين الأيوبى» بما يملكه من عبقرية عسكرية وقدرات سياسية أن يرى فى محور مصر والشام العمود الفقرى لدولة الوحدة العربية الإسلامية والذى يمكنه من ردع الهجمة العنصرية للحملات الصليبية.. وقد عمل الاستعمار، منذ قديم الأزل وحتى الآن، على قطع الاتصال والتواصل بين مصر والشام، حتى نجح فى غرس تلك الخلية السرطانية المسماة بدولة إسرائيل فى خاصرة الجسد العربى ليقطع هذا الاتصال.. وكل جسد يصاب بخلية سرطانية يصبح أمام خيارين لا ثالث لهما: فإما المقاومة والانتصار أو الانهيار والتلاشى وقد اختار «صلاح الدين» المقاومة فحقق الانتصار ليقدم لنا (النموذج) الذى يجب أن نستمسك به؛ لأنه بلا بديل.. وقد نجح «صلاح الدين» فى مد دولة الوحدة من ليبيا إلى جنوب الموصل لتشمل بلاد الشام والجزيرة الفراتية مع مصر والحجاز واليمن.. وقد ساعده فى ذلك امتلاكه لرؤية استراتيجية واضحة مكنته من (جدولة المهام) ووضع الأولويات فقد كان حريصا كل الحرص على ألا يحارب

خصمين فى جبهتين مختلفتين فى وقت واحد، حتى لا تتشتت أفكاره وقواه.. فكان يتفرغ لجبهة واحدة وإن انفتحت الجبهة الثانية يعمل بكل قواه على تحييدها حتى ينتهى من الجبهة الأولى.. وقد اتضح ذلك منذ البداية حيث حرص على تمكين أمره أولا فى مصر ليتخذها قاعدة ينطلق من خلالها فى تحقيق حلم الوحدة.. ومن أهم نجاحات تلك الرؤية الاستراتيجية التى امتلكها «صلاح الدين» قدرته على استخدام كل الآليات المتاحة والتى تساعده على حسم الصراعات فى الداخل والخارج، مثل امتلاكه جهاز مخابرات متميزاً عمل على وأد الفتن فى الداخل خاصة بعد انهيار الخلافة الفاطمية الشيعية كما عمل على كشف المؤامرات الخارجية وتقديم المتآمرين للمحاكمة..

ويأتى فى هذا الإطار أيضا حرصه على بناء أسطول قوى لمواجهة تلك الأساطيل الأوروبية ولحصار الممالك الصليبية فى الشرق.

ومن أهم عناصر النجاح عند «صلاح الدين» الأخذ بالأسباب وحسن التخطيط؛ خاصة أنه جاء فى وقت عصيب، وفى حالة أقرب إلى الانهيار فى العالم الإسلامى والعربى بعد صدمة الحملة الصليبية الأولى التى انتزعت القدس الشريف.. وقد أدت هذه الصدمة إلى ظهور دعاوى كثيرة تؤكد على أن ما حدث كان بسبب البعد عن الله، وعدم الالتزام بأوامره، والوقوع فى نواهيه (وهذه الحالة متكررة بعد كل الهزائم) وقد شهدت المدن الإسلامية فى ذلك الوقت عمليات كثيرة لإراقة الخمور وتتبع (بنات الهوى) وقتلهن.. ومكافحة كل أشكال المنكر التى تفشت فى المجتمع الإسلامى، وذلك طلبا للمغفرة وكشف الضر عن بلاد المسلمين.. كما

انتشرت فى تلك المرحلة ظاهرة التصوف.. وتحول التصوف إلى تيار جارف وتجمع المتصوفة فى جماعات تعكف على ذكر الله، وتعيش على ما توفره لهم الدولة من أوقاف تضمن لهم الحياة الطيبة الآمنة.. ورغم تدين «صلاح الدين» وحبه للفكر الصوفى فإنه رفض كل هذه المظاهر، وأكد على أن مقاومة العدو وهزيمته لن تكون إلا بالأخذ بالأسباب والاستعداد وامتلاك كل آليات القوة، وتطوير الآلة العسكرية، ورفع الروح المعنوية، وامتلاك الإرادة والقدرة على الانتصار مهما تكن قوة العدو.. وإضافة إلى كل هذا فقد امتلك مهارة التخطيط، وبعد النظر، وحسن تقدير الأمور، والأهم مهارة اختيار الرجال والقادة والمعاونين، وكان يعرف متى يبدأ، ومن أين يبدأ، وكيف يبدأ، ولذلك استطاع تحقيق النجاح والانتصار فى غالبية المعارك التى خاضها، ليحفر اسمه ضمن (قائمة الشرف) التى تحوى أهم وأكبر أسماء القادة فى تاريخ البشرية كلها.

ورغم اتساع دولة «صلاح الدين» وكثرة خيراتها، فإنه كان شديد الزهد، إلى درجة التقشف، كما استنفدت الصدقات التى كان يخرجها كل ما لديه من مال، لدرجة أنه عندما مات لم يجدوا فى خزانته سوى سبعة وأربعين درهما وجراما واحدا من الذهب،.. والحاكم الزاهد عملة، شديدة الندرة سواء فى العصور القديمة أو العصر الحديث، فنحن قديما نستطيع أن نذكر «عمر بن الخطاب»، و«عمر بن عبدالعزيز» وحديثا نستطيع أن نذكر «جمال عبدالناصر» ولكننا فى النهاية لن نجد إلا عددا قليلا من الحكام هم الذين رفضوا أبهة الحكم والجاه والسلطان، وارتضوا الزهد والتقشف، وكلهم من أصحاب الأهداف النبيلة والأعمال العظيمة... وقد

كان «صلاح الدين» من هؤلاء القلة حيث كان يردد دوما «إن المال والتراب عندى سيان».. كما وصفه صديقه ورفيقه وكاتب سيرته القاضى بن شداد قائلا: «لقد قضى حياته صابرا على مر العيش وخشونته مع القدرة التامة على غير ذلك احتسابا لله تعالى» وللحق فإن تقشف «صلاح الدين» يمثل أعلى مراتب (الزهد النبيل)، لأنه زهد القادر الذى اختار خشونة العيش رغم توفر كل أسباب التنعم والرفاهية.. وهو بالطبع أنبل وأعظم من زهد العاجز الذى يجبره عجزه على الزهد والتقشف.

ومن أهم صفات «صلاح الدين» أيضا تمثله لأخلاقيات الإسلام وخاصة السماحة والعفو عند المقدرة، ورفض الثأر الأعمى.. فعندما استولى الصليبيون على القدس قتلوا فيها أكثر من سبعين ألف مسلم لدرجة أن مؤرخيهم كتبوا أن فرسانهم وخيولهم كانوا يخوضون فى الدماء.. وعندما استرد «صلاح الدين» القدس عامل الصليبيين بكل ما يقول به الإسلام من سماحة، فقد عفا عن كل من لم يملك ثمن الفدية، بل دفع لكثير من العجائز والعجزة الفدية من ماله الخاص.. ورغم تطاول أرناط حاكم الكرك على الإسلام ورسوله الكريم لدرجة سعيه لهدم الكعبة وقبر النبى (نسمع الآن ونقرأ تصريحات كثيرة لقادة أمريكان وصهاينة يهددون بالشىء نفسه) ورغم وجود بعض الرسوم المسيئة للنبى عليه الصلاة والسلام (تعود الرسوم المسيئة الآن وبشكل أكثر عنفا) رغم كل هذا فإن «صلاح الدين» رفض الانتقام من كل أهل الكرك، وقرر أن ينتقم من أرناط وحده، بل إنه عند حصار الكرك سمح لعروسين من الفرنج بالخروج من أحد أبراج الحصن لإتمام زفافهما،

بينما القتال يدور حول الأبراج الأخرى، وأمر فرقة عسكرية بحراسة العروسين حتى يصلا إلى مكانهما.. وفعل الشئ نفسه عند حصار القدس، حيث جاءته امرأة صليبية فى حالة من الفزع والجزع والحزن الشديد لغياب ابنتها فطمأنها وأمر بالبحث عن الفتاة وإعادتها، فعادوا ليخبروه بأن الفتاة قد تم بيعها، فأمر باستردادها فورا ممن اشتراها على أن يأخذ ما دفعه من ماله الخاص، ولم يهدأ حتى عادت الفتاة، فأمر بدابة تحمل الفتاة والأم إلى معسكر الصليبيين.. إنها سماحة القوى الواثق من قوته.. وسماحة الدين الذى أمرنا بقتال العدو مع مراعاة كل حقوق الإنسان، فأين هذا مما فعله الصليبيون القدامى من تدمير وقتل فى كل بقاع الدنيا وخاصة فى بلاد الإسلام. وأين هذا مما يفعله أحفادهم الآن من افتراءات واعتداءات على الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم؟

وقد ساعد على إبراز كل تلك الصفات الحميدة «عند صلاح الدين» حرصه على تقريب العلماء والأدباء والاستماع إليهم، ويبرز من هؤلاء العلماء والأدباء ثلاثة كانوا الأقرب والأكثر تأثيرا وهم: صديقه وكاتب سيرته القاضى ابن شداد الذى وضع كتابا رائعاً سماه (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية): ثم العماد الكاتب مؤلف كتاب (الفتح القدسى) وأخيرا الأديب المصرى عبدالرحيم البستانى المعروف باسم القاضى الفاضل، الذى أنشأ ديوان الإنشاء والذى يشبه وزارة الخارجية الآن.. وكان «صلاح الدين» شديد التواضع فى حضرة هؤلاء العلماء والأدباء ويؤكد لهم دوما أنه فارس يحارب فى سبيل الله وليس طالب ملك أو سلطان فيقول: «ما كنا لنجلس فى هذا المكان إلى الأبد (يقصد كرسى الحكم)..

فهذا المنزل لا يصلح لمن يطلب الموت (المحارب).. وما نحن هنا إلا لنقوم بخدمة الله سبحانه».

من الصعب الإحاطة بكل مآثر وإنجازات «صلاح الدين» فى هذه المقدمة المحدودة، ومن الصعب أيضا أن نجعل منها ومن هذا الكتاب، بشكل عام، مادة للترويج لـ«صلاح الدين الأيوبى» على أنه (النموذج الأمثل) الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وذلك لأن مثل هذا النموذج (غير إنسانى) وغير موجود اللهم إلا بين الأنبياء والرسل.. ولكن «صلاح الدين» ذلك النموذج الإنسانى العظيم قد شهد انقساما حول شخصه وإنجازاته، ورغم أننا نميل تماما إلى تغليب الإيجابيات والإنجازات فى شخص ومسيرة «صلاح الدين» على السلبيات والإخفاقات، فإننا لا يمكن أن نغفل بعض الانتقادات التى وجهت إليه، ومثل هذه الانتقادات لا تنتقص أبدا من قدره ومن حجم إنجازه العظيم.. ومن أهم هذه الانتقادات ميله إلى العنف خاصة ضد الفاطميين وأتباعهم والحقيقة أن مثل هذا الاتهام لا يصمد طويلا، وذلك لأن «صلاح الدين» قد توارى كثيرا خلف الخلافة الفاطمية باعتبارها درعا احتمى بها فى صراعه الخفى مع «نور الدين محمود زنكى».. ومع ذلك فإن الحروب الكثيرة جدا التى خاضها «صلاح الدين» لن تخلو من مثل هذا العنف وهذه سنة الحروب قديما وحديثا.

ومن الانتقادات أيضا اتهامه بمحاباة أهله وخاصة أبناءه ثم مماليكه على حساب باقى الجيش والرعية، ورغم زهد وتقشف «صلاح الدين» فإن هذا الاتهام قد يجد له صدى من الحقيقة خاصة أن قائدا مثل «صلاح الدين» عاش ثلاثين عاما فى حروب وصراعات مستمرة وكان لابد له من تحقيق

أقصى درجات الأمان والتأمين لنفسه ولدولته، وهذا لن يتأتى إلا من خلال (أهل الثقة) ومثل هذا النهج قد يريح الحاكم بعض الوقت إلا أنه لن يريحه (كل الوقت) والدليل موجود فى سيرة «صلاح الدين» نفسه حيث تمرد عليه قواده وجنوده أكثر من مرة، مما جعله يتراجع عن أكثر من معركة حاسمة.. مما أفقده تحقيق النصر الحاسم فى أكثر من معركة، وهذا بالطبع لا يرجع إلى هذا التمرد ولكنه يعود بالأساس الى بعض الأخطاء الاستراتيجية مثل سماحه للصليبيين بعد حطين وفتح القدس بالذهاب إلى صور، وكان المفترض أن يجبرهم على العودة من حيث أتوا فى أوروبا، ولكنهم ذهبوا إلى صور ليتجمعوا ثم تحولوا إلى رأس سهم للحملة الصليبية الثالثة التى قادها «فيليب أغسطس» و«ريتشارد قلب الأسد» وانتهت بصلح الرملة حيث لا غالب ولا مغلوب.. ولكن التنازل من الطرفين.. وفى رأينا أن أهم الانتقادات التى يمكن أن توجه إلى «صلاح الدين» تكمن فى عدم وضعه لآلية تضمن استمرار الإنجاز من بعده حيث تآكلت الدولة الأيوبية حتى انهارت تماما برحيل «نجم الدين أيوب» ليظهر بعدها دولة المماليك - والتى نجحت أثناء حكم الأشرف خليل قلاوون فى سنة ٦٩٠هـ فى طرد الفرنج من عموم بلاد الشام - وقد يعود ذلك إلى الرحيل المفاجئ «لصلاح الدين الأيوبى» مع وجود بذرة التمرد لاتهامه بمحاباة أهله ومماليكه، تلك البذرة التى تحولت إلى شجرة بعد رحيله.. ورغم كل هذا، فإن المحصلة النهائية لمسيرة «صلاح الدين الأيوبى» تؤكد على أنه منقذ الأمة من الانهيار، وباعث واحدة من أهم نهضاتها فى كل تاريخها، وواضع (النموذج الأمثل) الذى يضمن لهذه الأمة قوتها وقدرتها على الصمود والتحدى أمام أى عدو مهما تكن قوته، حيث يتجلى هذا

النموذج فى حتمية الوحدة والمقاومة.. ويكفى «صلاح الدين» احترام وتقدير أعدائه له بعد أن اشتهر بالتسامح فى عصر بلغت فيه النعرة الدينية المتعصبة حد الهوس.. وقد تحول اسم «صلاح الدين» إلى رمز للبطولة السياسية والعسكرية والحكم الرشيد فى الأمة الإسلامية ونموذج يتحتم علينا استنساخه قبل فوات الأوان.

محمـــد الشـافعى

القاهرة- مارس ٢٠١٠

الحروب الصليبية

لم تكن الحروب الصليبية حربا بين ديانتين.. بل كانت حربا سياسية استعمارية تحمل أهدافا توسعية.. وقد امتدت هذه الحروب ثلاثة قرون (الحادى والثانى والثالث عشر للميلاد) بزعم استخلاص بيت المقدس من أيدى المسلمين.. وقد قال أحد زعماء هذه الحروب كاشفا السر الحقيقى : «هذه الحرب ليست لاكتساب مدينة واحدة.. بل لامتلاك أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التى لا تحصى.. فاتخذوا حجة بيت المقدس وضعوا أيديكم على سائر بلادهم.. لأن هذه الأرض تفيض لبنا وعسلا».

كما قال المؤرخ الإنجليزى «استفنسون» فى كتابه (الصليبيون فى الشرق) إن الحروب الصليبية لم تكن إلا حملات عسكرية لتأسيس قوة لاتينية فى سوريا وفلسطين.

وقد بدأت الحروب الصليبية عندما وقف البابا «أوريان الثانى» (٤٨٨هـ ـ ١٠٩٥م) فى كلير مونت بجنوب فرنسا يدعو

لخروج الغرب الأوروبى تحت راية الصليب فى حملة مقدسة نحو بلاد الشرق لإنقاذ قبر المسيح من مدنسيه.. ونصرة إخوانهم الحجاج المسيحيين من اضطهاد المسلمين لهم فى الأرض المقدسة!

وقد سارع الكثيرون لتلبية دعوة الباب لتصبح هذه الحادثة بداية لواحدة من أقسى ظواهر الاحتلال الاستعمارى البغيض، والتى حملت اسم (الحروب الصليبية) وقد امتدت الفترة النشطة فى هذه الحروب من ٤٨٨ ـ ٦٩٠هـ (١٠٩٥ ـ ١٢٩١م).

ويؤكد المؤرخون أن فكرة الحروب الصليبية تعود إلى فترة سابقة على البابا «أوريان الثانى».. حيث ترددت هذه الدعوة على لسان كل من البابا «سلفستر الثانى» (١٠٠٣م) والباب «سيرجيوس الرابع» (١٠٠٩ ـ ١٠١٢م) والبابا «جريجورى السابع» (١٠٧٣ ـ ١٠٨٥م).. كما كان لهذه الحملات الصليبية مقدمات سبقتها بنحو مائة عام تقريباً من خلال الاعتداءات على بلاد الشام وغيرها من البلاد الإسلامية على يد الإمبراطور البيزنطى «نفقور فوقاس» (٩٦٣ ـ ٩٦٩م) ثم على يد خليفته الإمبراطور «يوحنا تزيمسكس» (٩٦٩ ـ ٩٧٦م).

ويذهب بعض المؤرخين إلى تحديد عدد الحملات الصليبية بثمانى حملات فقط، رغم كثرة عددها، فمنذ وصول الحملة الأولى لم يكد يمر عام واحد دون مجىء جموع صليبية جديدة.. وبعض هذه الجموع فاقت فى كثرة أعدادها

وأهميتها ما حققته من نجاح الحملات الصليبية التى فازت بأرقام فى التاريخ.. وقد توجه أربع من الحملات الثمانى إلى الشام «الأولى ـ الثانية ـ الثالثة ـ السادسة» واثنتان إلى مصر «الخامسة ـ السابعة» وواحدة ضد القسطنطينية «الرابعة» وواحدة ضد شمال أفريقيا «الثامنة».

الأسباب الحقيقية للحملات الصليبية

كثيرة هى الدوافع التى أدت إلى قيام الحملات الصليبية رغم إصرار زعمائها على التخفى تحت عباءة الدافع الدينى ومن هذه الدوافع ما يلى:

١ـ الدافع الدينى:

يقول المؤرخ «روبرت الراهب» والذى عاصر بداية الحملات الصليبية: «إن هذه الحملات من عمل الله وليس من عمل الإنسان».. وبشكل عام فإن الهدف الأشهر لتلك الحروب كان تخليص بيت المقدس من أيدى المسلمين وتهيئة جو مسيحى خالص للحجاج النصارى يحقق لهم الأمن عند زيارة الأماكن المقدسة فى فلسطين.

وقد ترتب على هذه الحملات عودة البابوية إلى سطوتها القديمة، وتحقيق نوع من الإشراف المركزى الدقيق على كل الكنائس الغربية.. وإثارة نوع من الحماسة الدينية فى كل الغرب الأوروبى.

ورغم «مسالمة» المسيحية، فإن بعض البابوات جعلوها «محاربة» وعلى رأسهم القديس «أوغسطين» فى القرن السادس الميلادى، والذى تحدث عن الحروب العادلة.. ثم أصبحت الحروب شريعة دينية لدى باباوات روما.. والغريب أن هذه الحملات لم تخرج ضد المسلمين فقط، بل خرجت

أيضاً ضد المسيحية الشرقية ومعتنقيها «الأرثوذكس» فى الإمبراطورية البيزنطية خلال الحملة الرابعة عام ١٢٠٤م.

٢ـ الدافع الاقتصادى:

تحدث البابا «أوريان» عن أرض كنعان التى تفيض لبناً وعسلاً، وأشار إلى أن أرض أوروبا خاصة فرنسا قد ضاقت بسكانها، ليؤكد منذ البداية على أن الدافع الاقتصادى موجود وبقوة.. وقد أكدت الوثائق التاريخية على سوء الأحوال الاقتصادية فى غرب أوروبا وبخاصة فرنسا فى أواخر القرن الحادى عشر.. ويفسر ذلك زيادة عدد الفرنسيين فى الحملة الأولى عن أى جنسية أخرى.. ونتج عن هذه الأزمة الاقتصادية أن أكل الناس الأعشاب والحشائش.. كما أدت الحروب المحلية بين الأمراء والإقطاعيين إلى تفاقم هذه الأزمة، مما أضر بالزراعة والتجارة.. كما تحولت الحروب الصليبية إلى باب يدخل منه الجوعى للهجرة والحياة.. وطريق للخلاص من الأوضاع الاقتصادية الخانقة.. وتحولت هذه الحروب الصليبية منذ بدايتها إلى مغامرة اقتصادية، فغالبية من شاركوا فيها لم يفعلوا ذلك لخدمة الصليب ومحاربة المسلمين، بل جريا وراء المال، وجمع الثروات، وإقامة المستوطنات، والمراكز الثابتة لهم فى قلب العالم الإسلامى.

٣ـ الدافع الاجتماعى:

كان المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى يتكون من النبلاء الذين يحاربون، ورجال الكنيسة الذين يصلون،

والفلاحين الذين ينتجون. وقد استأثر النبلاء ورجال الكنيسة بالحكم.. وزادت سطوة النبلاء حتى لم يعد الملك نفسه إلا واحداً منهم.. وكانت الكنيسة ترى فى الفرسان «جنود الله» أو «جنود الكنيسة»، ولهذا تواصلت الحروب الدامية التى تشنها أوروبا ضد غير المسيحيين الغربيين.. وتحول الفرسان إلى أصحاب حظوة، وتناثرت أملاكهم وتحولت إلى قلاع تدير الإقطاع.. وتفجرت الصراعات بين الإقطاعيين بعضهم البعض، وفشلت الكنيسة فى وقف هذه الصراعات، وظهر ما عرف بـ «هدنة الرب» لتحقيق السلام ولكنها فشلت.. ورأى النبلاء فى الشرق المسلم مجالاً جديداً للبحث عن إقطاعات واسعة وجديدة، خاصة بعد تطبيق النظام الذى يمنح الابن الأكبر كل أملاك والده.. وعلى سائر الأبناء السعى فى اتجاه آخر، ولذلك وجد المحرومون من الإرث الإقطاعى فى الحروب الصليبية فرصة للسفر والمغامرة وامتلاك الأراضى فى الشرق الإسلامى.

وقد عاش الفلاحون فى غرب أوروبا عيشة منحطة، حيث يقيمون فى أكواخ تشبه «الزنازين»، وكان معظمهم من الرقيق والأقنان، وكلهم يفتقد أبسط مبادئ الحرية الشخصية.. ووجد هؤلاء الفلاحون فى الحروب الصليبية فرصة للتحرر من ذل الفقر والعبودية.. وهكذا تلاقت أضلاع المجتمع الأوروبى لتصب كلها فى اتجاه واحد اسمه الحروب الصليبية.

٤ـ الدافع السياسى:

السياسة كانت العنصر الفاعل فى صراع الأمراء الصليبيين مع بعضهم البعض، حتى بعد بداية الحملات الصليبية.. كما كانت العنصر الفاعل فى الصراع بين الصليبيين والدولة البيزنطية رغم أنهما ينتميان إلى المسيحية.. والسياسة هى التى دفعت كبار ملوك أوروبا مثل «فردريك بربروسا ـ ريتشارد قلب الأسد ـ فيليب أغسطس ـ لويس التاسع ـ إلخ» إلى الخروج فى هذه الحملات تحت ضغوط وتهديدات البابوية.. وقد رأت الأسرات الأوروبية الحاكمة فى المشروع السياسى فى الشرق الإسلامى أحد العوامل لقيام الحملات الصليبية.. كما أدى ضعف دولة الأتراك السلاجقة إلى تشجيع قادة الحملات الصليبية، فبعد أن قهر السلاجقة الدولة البيزنطية وأسروا إمبراطورها، أدى الصراع بين أبناء «ملكشاه» إلى تفتيت الدولة وضعفها.. ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الفاطميين (وهم شيعة) قد أسهموا فى تشجيع الصليبيين على غزو السلاجقة (وهم سنة)، وذلك لاستعادة الأراضى الشامية التى استولى عليها السلاجقة من الفاطميين.. كما أن ضعف الدولة البيزنطية أدى إلى تشجيع قادة الحملات الصليبية على غزو الشرق الإسلامى.

ويؤكد بعض المؤرخين أن الإمبراطور البيزنطى «إلكسيوس كومنين» قد استغاث بالبابا «أوريان الثانى» من خطر السلاجقة.

الحملة الصليبية الأولى

فى السابع من فبراير ١٠٩٦م عقد البابا «أوريان الثانى» المجتمع البابوى فى كليرمونت، ثم خطب فى الناس قائلاً: «الحرب المقدسة المعتمدة الآن ليست لأخذ الثأر من إهانات البشر، بل عن الإهانات ضد الله» لتبدأ الحملة الصليبية الأولى وليظهر الخطباء المهيجون حيث ادعى أحدهم أن المسيح نفسه قد كلفه بالدعوة للحرب.. ونجح الراهب «بطرس الناسك» فى حشد جماهير غفيرة.. وخرج الأمر من يد البابا حيث توافد الفلاحون والمرضى مع النبلاء والأمراء وكل منهم ذاهب إلى الحرب سعياً خلف هدفه الخاص، وسارع جيش الفلاحين بالخروج حيث احتك مع سكان كثير من المدن التى مر عليها مثل سيملين المجرية ثم بلجراد وصوفيا، حيث قام الجيش البيزنطى بقتل الكثيرين من الجيش الصليبى الذى انطلق إلى القسطنطينية، ومنها عبروا مضيق البسفور ليهاجموا بعض القرى السلجوقية، حتى وصلوا إلى مدينة نيقية ليجدوا الجيش السلجوقى الذى هزمهم هزيمة ساحقة ـ ليكون الإخفاق محصلة للحملة الصليبية الشعبية.

حملة الأمراء

بدأ جيش الأمراء «الجيش النظامى» مغادرة أوروبا الغربية فى أغسطس ١٠٩٦م، وكانت المقدمة تحت قيادة «جود فرى» وأخيه «بلدوين الثانى»، حيث وصلا إلى القسطنطينية فى ٢٣ ديسمبر ١٠٩٦م وفى يناير ١٠٩٧م تصدى الجيش البيزنطى بقسوة لتجاوزات جيش «جود فرى» الذى عبر الشاطئ الآسيوى فى أبريل ١٠٩٧، وعسكر انتظاراً لوصول المجموعة الثانية بقيادة «بوهيموند»، والثالثة بقيادة «ريموند»، والمجموعة الرابعة بقيادة «روبرت».. وتجمعت المجموعات الأربع بالقرب من أزمير، وانضم إليهم ما تبقى من جيش العامة.. وحاصر الجيش الصليبى نيقية عاصمة السلاجقة، وبعد سبعة أسابيع قرر السلاجقة تسليم المدينة للإمبراطور البيزنطى الذى منع الصليبيين من نهب المدينة.. وتقدم الجيش الصليبى إلى قونيه فى منتصف أغسطس ١٠٩٧ ليجد الجيش السلجوقى قد انسحب منها إلى «هرقلة»، وفيها دارت معركة بين الجيشين، لينقسم الجيش الصليبى بعدها إلى قسمين: قسم بقيادة «تانكرو» ذهب إلى «قليقية» وقلعة بلاكتينيا.. وفى أرمينيا الصغرى قدم الأرمن مساعدات كثيرة للصليبيين، فتحركوا إلى الرها.. حيث توقف «بلدوين» عن السير ليقيم أول إمارة صليبية فى الرها ١٠٩٨.. وتقدم ما

بقى الجيش الصليبى إلى أنطاكية وحاصرها لمدة تسعة أشهر، حتى سقطت فى يونيه ١٠٩٩، وتعرض أهلها المسلمون لمذبحة رهيبة على يد الصليبيين.

وحاول «كربوغا» حاكم الموصل نجدة أنطاكية فتعرض لهزيمة كبيرة ليتم تكوين ثانى إمارة صليبية فى أنطاكية بقيادة «بوهيموند».. وتقدم الجيش الصليبى إلى بيت المقدس التى كانت خاضعة للحكم الفاطمى فى مصر.. وتم حصارها لمدة شهر حتى سقطت فى مايو ١٠٩٩ فأستباحها الصليبيون وأوقعوا فى أهلها مذبحة بشعة، وتردد أن عدد القتلى زاد على٧٠ ألفاً.. وبعد صراع بين الأمراء عمن يحكم بيت المقدس استقروا على أن يحكمها «جود فرى»، ولكنه سرعان ما قتل فى سنة١١٠٠م، فتم استدعاء أخيه «بلدوين» من الرها ليتولى حكم بيت المقدس التى ضمت إليها يافا والرملة وبيت لحم والخليل.. وسار «ريموند» حتى استولى على اللاذقية وسلمها للامبراطور البيزنطى.. وفى ١١٠١ جاءت الحملة اللومباردية من إيطاليا على ثلاث دفعات فتم القضاء عليها تباعا فى آسيا الصغرى، ولكن «ريموند» قاد جيشه واستولى على أنطرسوس، ثم جبيل، وأقام قلعة فى مواجهة طرابلس المدينة المحصنة وحاصرها لمدة ست سنوات مات خلالها «ريموند» سنة ١١٠٥ متأثرا بجراحه، فواصل ابن خاله «وليم جوردان» محاصرة المدينة حتى استسلمت فى ١١٠٩م مقابل تأمين حياة أهلها، ولتصبح الإمارة الصليبية الرابعة الذى حكمها «وليم جوردان» والذى قتل بعد ذلك فى ظروف غامضة.

بداية المقاومة الإسلامية

أعلن السلطان «محمد السلجوقى» الجهاد المقدس ضد الصليبيين مستغيثا بـ «شرف الدين مودود» حاكم الموصل الذى انضم إليه طغتكين حاكم دمشق، حيث هزما جيش الأرمن هزيمة ساحقة فى ١١١٠ م حول الرها، وفى عام ١١١١ م أنضم إليهما «رضوان» حاكم حلب وتقدموا إلى الرها، ولكن كلا منهم كان يخشى غدر الآخرين فتراجعوا دون أن يهاجموا الرها أو طرابلس.. وبعد عامين أى فى عام ١١١٣م هاجم «مودود» الصليبيين وحقق انتصارات كبيرة.. ولكنه قتل هو الآخر فى ظروف غامضة فى أكتوبر ١١١٣، وخلفه «اقسنقر البرسقى» ولكنه لم يكن فى كفاءة «مودود» وشجاعته، وقتل سريعا.. فقام السلطان «محمد السلجوقى» بتعيين «عماد الدين زنكى» حاكما للموصل والجزيرة الفراتية والشام.. وكانت الرها مصدر خطر كبير على المواصلات الإسلامية بين الموصل وحلب، وتقدم «زنكى» وحاصرها فى ٢٨ نوفمبر ١١١٤ مستغلا إقامة أميرها «جوسلين الثانى» فى منطقة تل باشر، وبعد حصار ما يقرب من الشهر سقطت الرها فى ٢٣ ديسمبر ١١٤٤ وعندما دخلها «عماد الدين زنكى» لم ينتقم إلا من الصليبيين الكاثوليك وتسامح مع سكانها من الأرمن، وأبقى على كنائسهم، وقد علا اسم «زنكى» واشتهر باسم «حامى العقيدة» وسماه الخليفة «الملك المنصور».. وفى المقابل تلقى البابا «يوجينيوس الثالث» خبر سقوط الرها أول إمارة صليبية فى الشرق بغضب وحزن شديدين ودعا إلى حملة ثانية.

الحملة الصليبية الثانية

خــرجت فكرة هذه الحــملة من بلاط «لويس الســابع» ملك فرنسا وكان معروفا بورعه وتقواه.. ثم تأكدت الفكرة فى مجمع فيزلاى، واستجاب لها امبراطور ألمانيا «كونراد» وطلب البابا «يوجينيوس» من الملكين الكبيرين قيادة الحملة الجديدة. وتوجه «كونراد» إلى صورليوم حيث منى بهزيمة ساحقة على أيدى السلاجقة، وسارع «لويس السابع» لنجدته.. ولكن «كونراد» عاد إلى بيــزنطة ومنهــا إلى بيت المقــدس وترك «لويس الســابع» وحيدا أمام السلاجقة الذين حاصروه وأجهدوه فهرب إلى أنطاكيــة، وبعد أيام قليلة حدث تقارب عــاطفى بين زوجة «لويس» و«ريموند» حاكم أنطاكية... فقرر «لويس» الذهاب إلى بيت المقدس للانضمام إلى «كونراد» وفى ظل هذا التصدع فى المعسكر الصليبى منى المعسكر الإسلامى بضربة قوية حيث قتل «عماد الدين زنكى» على يد أحد أتباعه، ولكنه ابنيه «نور الدين محمود» و«سيف الدين غازى» اتفقا على تولى الأول حكم حلب والثانى حكم الموصل وحمل «نور الدين» لواء والده لمواجهة الصليبيين، ومحاولة توحيد الجبهة الإسلامية.. وقرر «نور الدين» ضم دمــشق لأنهــا بداية خط الدفــاع عن حلب والموصل، فتزوج من ابنة «معين الدين» حاكم دمشق فى ١١٤٦، واكتشف عدم جدوى ذلك التحالف الذى بين «معين الدين» ومملكة بيت المقدس الصليبية.

وصل «لويس السـابع» إلى بيت المقـدس فى أبريل ١١٤٨ ليجد الصراع على أشده بين الأمراء الصليبيين حول المكاسب التى سيأخذها كل منهم من الحملة الجديدة، واكتشف مطامع مملكة بيت المقدس تحت حكم ملكها القيصر «بلدوين الثالث» وأمه الوصية عليه فى الاستيلاء على دمشق.. وفى يونيه ١١٤٨ عقد مجلس حرب حضره «لويس وكونراد وبلدوين» وتقررت مهاجمة دمشق، وتجاهلوا الهدف الأساسى للحملة وهو استعادة الرها ـ كما تجاهلوا أن حاكم دمشق «معين الدين» حليف لهم.. فسارع «معين الدين» باللجوء إلى «نور الدين» وشقيقه «سيف الدين غازى» فدخلا بجيشهما دمشق، وسارع الصليبيون بحصار المدينة ولكنهم انسحبوا بعد خمسة أيام فقط ليعود «كونراد» إلى أوروبا فى سبتمبر ١١٤٨، ورحل «لويس السابع» بعده بستة أشهر لتفشل الحملة الصليبية الثانية، وترتفع معنويات المعسكر الإسلامى ويعاود الهجوم مرة أخرى.

نشأة صلاح الدين

كانت بغداد مقرا للخليفة العباسى بينما كانت القاهرة مقرا للخليفة الفاطمى وبين الخليفتين تفتتت الامبراطورية الإسلامية إلى دويلات وإمارات وقطائع.. نشبت بينها صراعات ومناوشات يقودها أمراء ووزراء، وكل منهم يتحصن بقلعة، ومن هذه القلاع قلعة تكريت التى شهدت مولد طفل سماه والده «يوسف صلاح الدين» فى عام ٥٣٢ هـ (١١٣٧).. وتكريت بلدة صغيرة تقع على نهر د جلة ما بين بغداد والموصل، اشتهرت بقلعتها التى كانت تبرز فى ماء النهر فتحرس الطريق بين قلب الجزيرة الفراتية وبلاد الكرد، لهذا كان شرطا لاختيار حاكمها أن يتصف بشدة المراس والبأس.. وكان «الخليفة العباسى» وقت ميلاد «صلاح الدين» هو المسترشد العباسى، وكان الحكم فى يد وزيره الأول الملقب بالسلطان وهو السلطان «مسعود» حفيد «ملكشاه السلجوقى» وكان للسلطان مسعود مملوك يدعى بهروز ولاه بعض البلدان المجاورة ومن بينها قلعة تكريت، وقام بهروز بتولية إمارة تكريت لرجل اشتهر بالفروسية هو «نجم الدين أيوب» والذى كان معه شقيقه «أسد الدين شيركوه» وعاش الأخوان فى قلعة تكريت حتى أنجب «نجم الدين» ابنه «صلاح الدين».

وقد اختلف بعض المؤرخين حول جذور الأيوبيين، فقال «ابن خلدون» فى الجزء الخامس من تاريخه عند الحديث عن

الدولة الأيوبية : «وجدهم هو أيوب بن شادى بن مروان على بن عشرة بن الحسن بن على بن أحمد بن على بن عبدالعزيز بن هدية بن الحصين بن الحرث بن سنان بن عمر بن مرة بن عوف الحميرى الدوسى».

كما أكد ابن الأثير أن الأيوبيين من الأكراد، ويذهب بعض المؤرخين إلى أنهم عرب ينتهى نسبهم إلى بنى أمية، لكن الثابت أنهم أكراد، ويؤكد ذلك «المقريزى» وقد ذهب بعض المؤرخين إلى نسب «صلاح الدين» إلى جده «شادى»، وهو رجل عرف بالفروسية والمغامرة.. نشأ فى قرية صغيرة تدعى «دوين» فى بعض وديان بلاد الكرد ما بين أرمينية وفارس.. والأكراد بطبيعتهم شعب جبلى عرفوا بالقوة والخشونة والحرية، ويأنفون حياة العواصم.. ولكن «شادى» خالف عرف الأكراد ونزح إلى بغداد بصحبة ابنيه «نجم الدين أيوب، وأسد الدين شيركوه» مستغلاً صداقته مع المملوك الرومى بهروز حاكم بغداد والذى عين «شادى» حاكماً لقلعة تكريت.. وقد اشتهر الابن الأكبر «نجم الدين أيوب» بالرصانة والتدبر، واشتهر «شيركوه» بالفروسية وبعد فترة توفى الأب وأقيمت له قبة فى تكريت تعظيماً لمكانته وتولى نجم الدين قلعة تكريت إلى أن قتل شيركوه رجلا من أتباع بهروز لأنه تهجم على إحدى النساء مما أثار حفظية بهروز.. ثم حدث أن فر حاكم الموصل «زنكى» بجيشه من وجه السلطان «مسعود» الذى كان يتعقبه وكاد يقضى عليه لولا أن «نجم الدين أيوب»

ساعده على الهرب بتقديم القوارب لعبور دجلة عند تكريت، كما قدم له بعض الزاد والعتاد.. مما أثار حفظية بهروز أكثر فقرر طرد ابنى «شادى» من خدمته.. وتصادف خروج «نجم الدين» من تكريت ليلة مولد ابنه «صلاح الدين»، فذهب الأخوان «نجم الدين وشيركوه» إلى الموصل، فوجدا حاكمها زنكى حافظاً للجميل فرحب بهما وأكرمهما، ولم يقم «نجم الدين» فى الموصل أكثر من عام حيث ولاه «زنكى» على مدينة بعلبك فسار إليها ومعه ولده الرضيع.. وتوالت الأحداث بعد ذلك، فتوفى «زنكى»، وانشغل ولداه بتقسيم هذا الإرث العظيم.. فطمع حاكم دمشق فى بعلبك وشد عليها الحصار فصالح «نجم الدين» حاكم دمشق ودخل فى خدمته.. أما «شيركوه» فقد اتصل بالسلطان «نور الدين محمود ابن زنكى» فى حلب بعد أن استقام له الملك بعد أبيه، فأصبح «شيركوه» من كبار قواده.. وهكذا فرقت السياسة بين الأخوين «نجم الدين - شيركوه».. ثم رأى السلطان «نور الدين» قبل أن يخوض المعركة الحاسمة ضد الصليبيين أن يعمل على وحدة الإمارات الإسلامية، فقرر ضم دمشق، وأرسل «شيركوه» على رأس جيش كبير، فاستطاع أن يتشاور مع شقيقه «نجم الدين»، ودخل دمشق صلحا واتفاقاً، وأصبح «شيركوه» أميرا للجيوش وأصبح «نجم الدين» حاكماً للمدينة.

وجد الصبى «صلاح الدين» نفسه فى دمشق العاصمة الثالثة للعالم الإسلامى.. وعاش فى هذه المدينة كل سنوات

صباه وشبابه.. ورغم قلة المعلومات عن هذه الفترة فى حياة «صلاح الدين»، فإن المؤكد أنه قد نال من التربية والتعليم ما كان يحصل عليه الخاصة من الأمراء، فحفظ القرآن أو أجزاء كبيرة منه.. وأجاد اللغة نحوا وإنشاء، حتى قرض الشعر ووعى أصول الدين، وإن لم يتفقه فيه..

وكانت رياضة البدن عنصراً مهماً فى تربية أبناء الفرسان، فتدرب على ركوب الخيل والسباق واللعب بالصوالج «البولو»، واللعب بالسيف والرمى وإصابة الهدف، وتدرب على فنون الصيد والقنص بالصقور والكلاب، وكان فى ذلك كله مقتفياً سيرة أبيه وعمه.. ورغم تميز «صلاح الدين» فى كل هذا إلا أنه سلك سبيل الحياة الهادئة، مقتفياً أثر والده فى الرزانة والحكمة، خلافا لما كان عليه عمه من الإقدام والتهور.. وفى العمل وجد أمامه طريقين: الأول وعر وصعب ويقوده إلى الشهرة والعظمة، والآخر سهل ولين ويقوده إلى الشرف والسكينة، ففضل الثانى على الأول.. وقد تلقى «صلاح الدين» العلم فى المسجد الأموى على يد الشيخ «عبدالله بن عصرون» والذى كان إمام عصره.

اختلافات ومؤامرات

الناصر يولد من رحم الهزيمة

بلغت الدولة العباسية ذروتها فى القرن التاسع، ولكن «الخليفة العباسى» المعتصم أكثر من الاعتماد على الترك، وهجر بغداد وجعل سامراء عاصمة له سنة ٨٣٦ هـ.. وبعد المعتصم استفحل نفوذ الأتراك واتخذ كبيرهم لقب «أمير الأمراء»، وتوالت الثورات والحركات المذهبية داخل الدولة العباسية مثل «الحزمية ـ المعتزلة ـ الشيعة ـ الزنج ـ القرامطة»، وأدى كل هذا إلى كثير من الحركات الانفصالية عن الدولة الأم «الدولة السامانية ٩٧١-٩٩٨م- الدولة الزيارية ٩٢٨- ١٠٤٧م - الدولة الغزونية» « ٩٦٢-١١٨٦م- الدولة الحمدانية» ٩٢٩- ١٠٠٣م- الدولة البويهية - الدولة الأخشيدية فى مصر «٩٣٥- ٩٦٩م».. وأمام هذا الوضع المتردى راحت الخلافة العباسية تنتقل من سيئ إلى أسوأ حتى تولى فى مدى ثمانى سنوات « ٨٦١- ٨٦٩م» أربعة خلفاء.. قتل منهم اثنان.. وقد شجع هذا الوضع الامبراطورية البيزنطية التى انهزمت كثيراً من العباسيين لكى تتحول من الدفاع إلى الهجوم.. ولم ينقذ الدولة الإسلامية إلا ظهور الأتراك السلاجقة الذين ينتمون إلى مجموعة من

القبائل التركية عرفت باسم الغز، كانوا يسكنون سهول التركستان.. ثم هاجروا إلى بلاد ما وراء النهر، وقد سموا بذلك نسبة إلى جدهم الأعلى «سلجوق بن دقاق» الذى وحد كلمتهم.. وقد بسط السلاجقة نفوذهم على الخلافة العباسية فى بغداد، وراحوا يغيرون على أرض الروم فى آسيا الصغرى، وأنزلوا بهم عدة هزائم، كان أكبرها الهزيمة التى أنزلها السلطان «ألب أرسلان» بالروم فى مانزكرت «ملازكرت» سنة ١٠٧١ مما دفع الروم إلى الاستغاثة بغرب أوروبا والبابوية.. ولم تكن تلك أول مرة يستغيث الروم بالبابوية، ولكنها المرة التى صادفت استعداد البابوية لبدء الحملات الصليبية ضد المسلمين، فوجدوا فى هذه الاستغاثة فرصة ذهبية للسيطرة على بيت المقدس وعلى الكنيسة الأرثوذكسية فى الشرق أيضاً.

شقاق المسلمين.. لا قوة الصليبيين

لم تكن المكاسب التى حققها الصليبيون فى نهاية القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر لقوتهم، ولكن لضعف المسلمين وتناحرهم.. فالصراعات بين الشيعة والسنة، والعرب والترك، بل إن بعض فصائل المسلمين استعانت بالصليبيين ضد الفصائل المسلمة الأخرى.. وأمام هذه الغلبة الصليبية ظهرت بعض عمليات المقاومة الإسلامية من «دقاق» ملك دمشق، و«جناح بن ملاعب» أمير حمص، و«رضوان» ملك حلب، ولكن هذه المقاومة، لأسباب كثيرة لم تستطع إنقاذ الرها وأنطاكية.. وقد حاصر المسلمون أنطاكية حتى أكل الصليبيون الدواب والميتة، وورق الشجر، وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من الاستسلام، ولكن فجأة دب الشقاق بين الأتراك والعرب، مما سهل على الصليبيين هزيمة الجيش المسلم.. ليتقدموا بعد ذلك ويستولوا على القدس فى سنة ١٠٩٩م ولم يجد المسلمون إلا الدمع والنواح..!! وقد حاول الأفضل وزير مصر الفاطمى إنقاذ بيت المقدس ولكن الصليبيين هزموه فى ١٢ أغسطس ١٠٩٩م، فهرب إلى مصر بعد مقتل معظم جنوده، ولتكون هذه المعركة نهاية لنفوذ الفاطميين فى الشام، حيث سارع الصليبيون بالاستيلاء على الجليل وطبرية وحيفا «١١٠٠م» واستولى «بلدوين» أول حاكم لبيت المقدس على «أرسوف» وقيسارية «١١٠١»، ثم استولى على عكا «١١٠٤م».

مما جعل السيادة كاملة للصليبيين على شواطىء فلسطين وموانيها، وتعود هذه الهزائم إلى تراخى وتقاعد الخليفة الفاطمى (الآمر) عن جهاد الفرنج.. وقد فشلت حملات الفاطميين (١١٠١- ١١٠٢- ١١٠٥م) ضد الصليبيين فاتخذوا من عسقلان مركزا يشاغبون منه.. واستولى الصليبيون علي طرابلس (١١٠٩م) ثم على بيروت (١١١٠م) وقد أدت الهجمات الضعيفة للفاطميين إلى تشجيع «بلدوين» ملك بيت المقدس على تأمين حدود مملكته الجنوبية فسيطر على وادى عربة ثم شيد سنة ١١١٥ حصن الشوبك ومد نفوذه إلى شبه جزيرة سيناء بل تجرأ أكثر على الفاطميين وخرج بحملة صغيرة فعبر الصحراء الممتدة من غزة حتى العريش والفرما دون أن يتعرض لأى تهديد تم استولى على الفرما سنة ١١١٨ ليجدها خالية فأحرق مسجدها.

ويروى المؤرخ «ابن الأثير» أن «بلدوين» وصل إلى مدينة تنيس جنوبى بحيرة المنزلة.. وقد حال المرض دون استكمال (بلدوين) حملته على مصر ليعود إلى البيت المقدس، ولكنه مات قرب العريش اوائل أبريل ١١١٨م ويؤكد المؤرخ «أبوالمحاسن» أن أصحاب، «بلدوين» عندما مات شقوا بطنه وحنطوه ورموا أحشاءه هناك، فعرف ذلك المكان حتى اليوم بـ (سبخة بردويل) أو البردويل.

لم يتقاعس الفاطميون وحدهم عن مقاومة الصليبيين، بل تقاعس السلاجقة أيضا نتيجة الانقسام الذى أصابهم بعد

وفاة الملك «ملكشاه»، حيث اختلف ولداه «بركيا روق» و«محمد حول» حول تقسيم ملك أبيهما.. إلا أنهما اتفقا مرة أخرى فى ١١٠٤، ولكن بعد أن تفشت الصراعات بين الحكام المحليين، مما أدى إلى كثير من الفتن والثورات والمنازعات، وعندما رأى الصليبيون اشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم البعض، أسرعوا باستغلال الفرصة.

ثورة شعبية تطالب بالجهاد

أدت انتصارات الصليبيين إلى تقطيع أوصال العالم الإسلامى، ومنع انتقال القوافل والتجارة بين العراق والشام والحجاز ومصر.. وهو أمر لم يألفه المسلمون منذ بداية الفتح الإسلامى فى القرن السابع الميلادى.. وأدى هذا الوضع إلى نشوب ثورة شعبية بدأت فى حلب، حيث اتجه أهلها إلى بغداد لمطالبة الخليفة المستظهر بإعداد الجيش للجهاد.. فأرسل الخليفة إلى السلطان «محمد السلجوقى» لتجهيز حملة جديدة خرجت تحت قيادة ابنه «مسعود والأمير مودود» حاكم الموصل.. وتصادف فى ذلك الوقت تعاظم العداء بين البيزنطيين والصليبيين، فأرسل الامبراطور البيزنطى «الكسيوس» إلى السلطان «محمد السلجوقى» يحرضه على محاربة الفرنجة وطردهم من الشام.

جمع «مودود» حاكم الموصل كثيرا من حكام الأقاليم واتجه فى سنة ١١١١ لمهاجمة الرها التى استعصت عليهم، فعبروا

الفرات لمهاجمة تل باشر، وفجأة استغاث بهم «رضوان» حاكم حلب، فتركوا تل باشر وذهبوا إليه ولكنه خاف منهم أن يسيطروا على المدينة فأغلق أبوابها فى وجوههم، بل تحالف مع بعض القوى الصليبية للوقوف فى وجه الخطر السلجوقى المشترك.. وثار أهل حلب ضد حاكمهم، فعمل على قمع الثورة فى مهدها.. وعلى أبواب حلب تصدع الجيش، وذلك لأن «طغتكين» حاكم دمشق خاف هو الأخر على مدينته، فرفض التعاون وعمل على مهادنة الفرنج سرا.. وعاد «مودود» إلى الموصل بعد أن رأى بعض الحكام يبيعون أى شىء وكل شىء من أجل الحفاظ على (كرسى العرش) حتى لو كان فى حماية وحراسة الأعداء!!

فى عام ١١١٣م اختلف «طغتكين» مع «بلدوين» حاكم بيت المقدس حول صور ، فاستنجد الأول بـ«مودود» حاكم الموصل الذى عبر الفرات فى ١١١٣ وتبعه بعض أمراء السلاجقة، واتجهوا إلى طبرية لمعاونة «طغتكين» فى حصارها ولكنها استعصت عليهم فعملوا على تدمير الممتلكات الصليبية المجاورة حتى جبل الطور.. وتجمع الصليبيون بقيادة «بلدوين»، ولكنهم انهزموا فى موقعة الصنبرة إلى الجنوب الغربى من بحيرة طبرية، وبلغت خسائرهم ١٢٠٠ من المشاه، ٣٠ من الفرسان، ونجا الملك الصليبى بصعوبة، واستغل الفاطميون انشغال الصليبيين عند طبرية فخرجت قواتهم فى محاولة جريئة تدمر وتنهب فى الأراضى الصليبية، حتى قاربت أسوار بيت

المقدس.. ولو توحدت قوة المسلمين فى ذلك الوقت لاستطاعوا هزيمة الصليبيين هزيمة ساحقة..ولكن الانقسام والعداء بين الفاطميين والسلاجقة، وبين الشيعة والسنة، حال دائما دون ذلك.. وزاد الأمر سوءاً عندما اغتيل «مودود» حاكم الموصل فى الجامع الأموى، بدمشق على يد أحد الباطنية عند شروعه فى تأدية صلاة الجمعة، وقد اتهم المؤرخون «طغتكين» بالتآمر على قتل ضيفه «مودود» خشية أن يسيطر على دمشق، وأكدوا على ذلك بإسراع «طغتكين» فى قطع رقبة القاتل رغبة منه فى طمس معالم الجريمة.. وعندما ثار الرأى العام الإسلامى على «طغتكين» واتهمه بالخيانة بادر، بالتحالف مع الصليبيين.. وتولى «اقسنقر البرسقى» حكم الموصل، وخرج ومعه ابنه «عماد الدين زنكى» لمهاجمة الصليبيين فى الرها سنة ١١١٤م، وبعد حصار شهرين عاد إلى الموصل ليعزله السلطان «محمد السلجوقى»، ويولى جيوش بك أمر الموصل.. كما عهد بقيادة الحرب ضد الصليبيين إلى الأمير «برسق» حاكم همذان، وذلك فى شتاء ١١١٥م، وفى ظل هذه الفوضى استغل بعض الأمراء الوضع لقطع صلتهم بالسلطنة السلجوقية فى أصفهان ومنهم، «طغتكين» فى دمشق و«بدر الدين لؤلؤ» فى حلب والأراتقة فى ديار بكر، واجتمع هؤلاء الأمراء ضد جيش السلاجقة بقيادة «برسق» وهزموه سنة ١١١٥م ومات «برسق» حزنا.

وزادت سطوة الصليبيين فثار أهل حلب وسلموا مدينتهم إلى الأمير التركمانى «نجم الدين إيلغازى» صاحب ديار بكر والذى

خرج على رأس جيش كبير لمواجهة «روجر» حاكم أنطاكية، وانهزم الصليبيون فى موقعة البلاط صيف ١١١٩م، وقتل منهم عدد كبير، من بينهم «روجر الأنطاكى» نفسه، وأطلق الصليبيون على السهل الذى دارت فيه الموقعة اسم (ساحة الدم).

حول «طغتكين» حاكم دمشق تحالفه مع الصليبين إلى تحالف مع الفاطميين فى مصر، واتفق مع الأفضل الوزير الفاطمى على مهاجمة الصليبيين، فهاجم طبرية، ثم اتجه إلى عسقلان لمقابلة قوات الأفضل، ورابط الجيشان المسلم والصليبى كل منهما أمام الآخر لمدة ثلاثة أشهر من دون قتال، ثم رحل كل منهما من حيث أتى.

واستمر «إيلغازى الأرتقى» فى مهاجمة الصليبيين أعوام ١١١٩ – ١١٢٠– ١١٢١م، ثم توفى «إيلغازى» فى نهاية ١١٢١ واستمر الجهاد بعده، حيث وقع «بلدوين الثانى» ملك بيت المقدس أسيرا فى قبضة الأراتقة سنة ١١٢٣ عند شروعه فى إنقاذ أمير الرها من الأسر.. واستغل الفاطميون الفرصة وأرسلوا حملة برية وبحرية لمهاجمة يافا.. ولكن الصراعات والانقسامات لم تبرح أوصال المسلمين، حتى أخذت سلطنة السلاجقة فى الاضمحلال خاصة بعد وفاة السلطان «محمد» سنة ١١١٨، حيث خلفه ابنه «محمود» الذى كان فى الرابعة عشرة من عمره، فترك شئون الحكم فى يد وزرائه وانصرف هو إلى اللهو.

وتحولت الخلافة العباسية فى ذلك الوقت إلى مجرد صورة شكلية.. مما دفع بـ «بنى مزيد»، وهم قبيلة عربية شيعية

كانت تنتشر فى العراق، إلى الاستيلاء على المنطقة الواقعة حول الحلة غربى الفرات، وعلا شأن «صدقة بن مزيد»، وأطلق على نفسه اسم «سيف الدولة»، مما أثار السلاجقة السنة.. ونجحت قوات السلطان «محمد السلجوقى» فى قتل «صدقة بن مزيد» عام ١١١٨، فتولى الأمر من بعده ابنه «وبيس بن صدقة» الذى هاجم بغداد فى سنة ١١٢٠ وأعمل فيها النهب والقتل والفساد، فاستغاث الخليفة العباسى المسترشد بالله بالسلطان «محمد السلجوقى»، واستطاع «وبيس» هزيمة السلاجقة فى ١١٢٣، ونقل نشاطه إلى البصرة ثم إلى قلعة جعبر فى شمال الشام، وتحالف مع الإفرنج فى حصار حلب.. وحاول الخليفة أن يكون له جيش، فعارضه السلطان «محمود السلجوقى»، وزحف بجيش كبير إلى بغداد، فخرج الخليفة وأسرته إلى البر الغربى لنهر دجلة، واستطاع «عماد الدين زنكى» حاكم الموصل من قبل السلطان «محمود السلجوقى» هزيمة جيوش الخليفة عند واسط، مما دفع الخليفة إلى الخضوع والاعتذار فى سنة ١١٢٧م.

وإذا كان التفكك والصراع قد ضربا بالمسلمين فى الجبهة الشرقية، فإن الجبهة الغربية، (الخلافة الفاطمية) لم تسلم هى الأخرى خاصة بعد مقتل الوزير الأفضل، فى ديسمبر ١١٢١ ليضع بداية النهاية فى تاريخ الخلافة الفاطمية، وهكذا ضمن الصليبيون قسطا من الاستقرار فى أوائل القرن الثانى عشر.

عماد الدين زنكى

«عماد الدين زنكى ابن أقسنقر» أبرز قادة السلطان «ملكشاه السلجوقى» والذى أعطى «أقسنقر» حكم حلب سنة ١٠٩٢م ولكنه قتل فى ١٠٩٤ فنشأ ابنه «عماد الدين» نشأة هادئة بعيدة عن النفوذ والسلطان والتحق بخدمة «جاولى» حاكم الموصل ومن بعده «البرسقى» وترقى حتى وصل إلى حكم البصرة ليكشف عن مهارة فى كل الأعمال التى كلفه بها السلطان «محمود السلجوقى» خاصة إخضاع الخليفة المسترشد سنة ١١٢٦ فاختاره السلطان حاكما للموصل فى سنة ١١٢٧ فاستولى على نصيبين وحران وقرر توحيد المسلمين فى العراق والشام قبل مواجهة الصليبيين فاستولى أولا على حلب سنة ١١٢٨ التى طمع فيها المسلمون والصليبيون بعد موت حاكمها «عز الدين مسعود بن البرسقى».. وعقب وفاة السلطان «محمود السلجوقى» سنة ١١٣١ نشب النزاع بين إخوته واختار الخليفة المسترشد أن يؤيد «سلجوق شاه» فى حين وقف «عماد الدين زنكى» مع «مسعود» ضد الخليفة «وسلجوق شاه» وانهزم «زنكى» فزحف الخليفة إلى الموصل فاستغل «اسماعيل بن بورى» الفرصة واستولى على حماة سنة ١١٣٣، كما هاجم الصليبيون حلب فى الوقت نفسه.. وفشل الخليفة فى الاستيلاء على الموصل وعاد إلى بغداد ليتم قتله فى سنة ١١٣٥ ومن بعده لجأ الخلفاء العباسيون إلى استرضاء «زنكى» والاستعانة به فراح يواجه خصومه من أمراء المسلمين أو

من الصليبيين وتوج أعماله بالاستيلاء على الرها فى سنة ١١٤٤ فى ضربة قوية للكيان الصليبى بالشرق، لأن الرها كانت أولى الإمارات التى أسسوها فى الشرق.. وفى قمة مجد «عماد الدين زنكى» انقض عليه أحد خصيانه فقتله فجأة فى سنة ١١٤٦.

نور الدين محمود وبداية الوحدة

نجح «نور الدين محمود زنكى» فى تثبيت قدمه فى حلب وو دون الثلاثين من عمره، وتمكن أخوه «سيف الدين غازى» فى الاحتفاظ بالموصل وكان الحد الفاصل بين ملك الأخوين نهر «الخابور».. أما الأخ الثالث «نصير الدين» فقد حكم حران تابعا لأخيه «نور الدين» وكان الأخ الرابع «قطب الدين» صغيرا فظل فى رعاية «غازى» بالموصل.. وقد تميز نور الدين بقدرته على اختيار الرجال فكانت له بطانة من الأوفياء أخلصت له النصح وتعاونوا معه فى صدق وإيمان.. واستهل «نور الدين» حكمه بمهاجمة إمارة أنطاكية واستولى على عدة قلاع فى شمال الشام.. وفى سنة ١١٤٧ وصلت الحملة الصليبية الثانية بزعامة «لويس السابع» إلى الشام وعندما فشلت هاجم «نور الدين» أنطاكية وأنزل بها هزيمة كبرى سنة ١١٤٩ حيث أباد الجيش الصليبى وكان من بين القتلى «ريموند» أمير أنطاكية و«رينو» حاكم كيسوم فضلا عن «على بن وفا» زعيم الباطنية الحشيشية الذى كان حليفا للصليبيين.. وتأكد «نور الدين» من أن مواجهة الصليبيين لن تكون إلا بالتئام القوى الإسلامية المبعثرة بين الفرات والنيل فى دولة واحدة تقف كالبنيان

المرصوص فى وجه هذه الوحدة، حيث تآمر حكامها ضد العرب والمسلمين، وتحالفوا مع الصليبيين ضد «نور الدين» الذى حاول كسب ود «معين الدين أنر» الحاكم الفعلى لدمشق فتزوج من ابنته.. وقد استمر «أنر» فى محالفته للصليبيين ولكنهم خذلوه حيث أغاروا على بعض ممتلكات دمشق عام ١١٤٧ ثم حاولت الحملة الصليبية الثانية فى ١١٤٨ الاستيلاء على دمشق، ثم توفى «أنر» فى ١١٤٩ واستمر خلفاؤه فى التحالف مع الصليبيين الذين زادت أطماعهم فى دمشق واضطر الدماشقة إلى دفع ضريبة سنوية للصليبيين مقابل حمايتهم.. وتمرد أهل دمشق على حاكمهم «مجيد الدين أبق» ورفضوا تحالفه وانسحاقه أمام الصليبيين.. واستطاع «نور الدين» الاتفاق مع بعض أهل دمشق لكى يسهلوا له دخولها حتى استطاع الاستيلاء عليها سنة ١١٥٤ لتصبح نقطة تحول فى تاريخ الحروب الصليبية حيث اتحدت بلاد الشام الإسلامية من الرها شمالا حتى حوران جنوبا تحت زعامة «نور الدين» ولتصبح دمشق عاصمة هذه الدولة التى أحدثت توازنا مع الصليبيين الذين استولوا على ساحل الشام كله من أسكندورنة حتى غزة.. بينما سيطر «نور الدين» على قلب الشام من الفرات حتى بردى ليغلق الطريق الشمالى فى وجه مملكة بيت المقدس الصليبية التى لم يبق أمامها - إذا أرادت التوسع - سوى طريق الجنوب حيث كانت الدولة الفاطمية تعانى آلام «الموت الاكلينيكى» أو الموت البطىء.

مصر وصلاح الدين.. موعد مع القدر

عندما استفحلت قوة الزنكيين فى شمال العراق والشام اضطر الصليبيون فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى إلى تغيير استراتيجيتهم بالتوسع فى الاتجاه الجنوبى الغربى على حساب مصر والفاطميين.. واستعدادا لغزو مصر قام «بلدوين الثالث» ملك بيت المقدس بالاستيلاء على عسقلان آخر قاعدة للفاطميين فى فلسطين.. وتصادف فى ذلك الوقت أن الدولة الفاطمية كانت فى حالة «الموت الإكلينيكى» أو الاحتضار بعد أن انتزع الوزراء كل سلطات الخليفة.. مما أدى إلى تعيين الخليفة الفاطمى الحافظ «١١٣١ ـ ١١٤٩م» لابنه وزيرا له فسار الابن على درب كل الوزراء حيث تآمر على والده واستبد بالأمر مما جعل الأب يدس له السم ليتخلص منه سنة ١١٣٥ وعندما توفى «الحافظ» فى سنة ١١٤٩ خلفه ابنه «الظافر» «١١٤٩ ـ ١١٥٤» واستبد بالأمر الوزير العادل «ابن السلاح» حتى قتل ١١٥٣ وراحت الدولة الفاطمية تعيش أيامها الأخيرة فى جو ملىء بالمؤامرات مما سهل على «بلدوين الثالث» الاستيلاء على عسقلان فى أغسطس ١١٥٣ وحول جامعها الكبير إلى كنيسة تحمل اسم القديس بولس.. ومات «بلدوين الثالث» سنة ١١٦٢ ليخلفه شقيقه «عمورى الأول» والذى قرر منذ البداية وضع يده على مصر حتى يمنع التحالف بين الفاطميين و«نور الدين»، ذلك

التحالف الذى سيضع بيت المقدس بين شقى الرحى.. وكان الخليفة الظافر قد قتل سنة ١١٥٤ وخلفه ابنه «الفائز» والذى كان فى الخامسة من عمره فاستبد بالأمر الوزير طلائع «بن رزيك» ومات الفائز فى سنة ١١٦٠ وهو فى الحادية عشرة من عمره فقام «بن رزيك» بتعيين «العاضد» فى الخلافة وكان فتى لا يزال مراهقا فزوجه «بن رزيك» من ابنته حتى تتم له السيطرة على كل شىء.. ورغم حداثة سن «العاضد» فإنه تمرد على الوضع المهين لمقام الخلافة فتآمر لقتل «بن رزيك» وتم له ذلك فى سبتمبر سنة ١١٦١ ليتولى الوزارة ابنه العادل والذى لم تدم وزارته إلا خمسة أشهر حيث قتله «شاور» حاكم الصعيد ليتولى الوزارة بدلا منه ويستأثر بالأمر كله ويسىء السيرة فى الناس فتمرد عليه «ضرغام بن عامر» وحاربه حتى طرده من مصر سنة ١١٦٣ وقام «عمورى الأول» بغزو الدلتا سنة ١١٦٣ حتى وصل إلى بلبيس وحاصرها ولم ينقذ مصر وقتها إلا فيضان النيل وهجمات «نور الدين» على الصليبيين فى الشام.. فانسحب «عمورى» إلى فلسطين بعد أن تأكد من ضعف مصر وكثرة خيراتها مما زاد من تصميمه على غزوها بأى شكل.. وفى المقابل زاد إصرار «نور الدين» على ضم مصر قبل أن يأخذها الصليبيون.. وكان «شاور» وزير مصر قد لجأ إلى «نور الدين» وطلب منه أن يعيده إلى مصر نائبا له فيها إضافة إلى ثلث دخل البلاد.. فجهز «نور الدين» حملة بقيادة

«أسد الدين شيركوه» «عم صلاح الدين» لتذهب إلى مصر وكان فيها «صلاح الدين» وهو شاب فى السابعة والعشرين من عمره.

صلاح الدين فى مصر

خرج «شيركوه» على رأس جيشه ومعه ابن أخيه «صلاح الدين» وشاور فى سنة ١١٦٤ فى حملته على مصر لحمايتها من الصليبيين وإعادة «شاور» إلى الوزارة.. فسارع «ضرغام» بطلب المساعدة من الصليبيين على أن تكون مصر تابعة للملك الصليبى.. ولكن مهارة «شيركوه» حسمت الأمر بالوصول أولا إلى الدلتا وانتصاره عند تل بسطا بمحافظة الشرقية على جيش «ضرغام» وفى أول مايو سنة ١١٦٤ وصل «شيركوه» إلى أسوار القاهرة، وتم قتل «ضرغام» أثناء محاولته الفرار، وتولى «شاور» الوزارة.. ولكنه سرعان ما تناسى وعوده لـ «نور الدين»، وحاول الغدر بـ «أسد الدين شيركوه»، والذى رد على موقف «شاور» باحتلال بلبيس والشرقية، فاستغاث «شاور» بالصليبيين فعاد «عمورى» مرة أخرى على رأس جيشه إلى مصر ليحاصر «شيركوه» فى بلبيس وانتهى الأمر بالاتفاق على مغادرة «شيركوه» و«عمورى» مصر فى أواخر سنة ١١٦٤، وقد حرص «عمورى» على سرعة تنفيذ الاتفاق بعد تزايد هجمات «نور الدين» على ممتلكات الصليبيين فى الشام... ولم تأت فى المراجع أية تفصيلات عن دور «صلاح الدين» فى حملة «شيركوه» الأولى

على مصر، ولكن المؤرخ «ابن شداد» - كاتب سيرة «صلاح الدين» - يذكر أنه كان موضع ثقة عمه، والذى كان لا يفصل أمرا ولا يقرر حالا إلا بمشورته ورأيه (لما لاح له من آثار الإقبال والسعادة والفكرة الصحيحة واقتران النصر بحركاته وسكناته). وقد أثر خروج «صلاح الدين» مع عمه فى هذه الحملة تأثيرا كبيرا وخطيرا فى مستقبل حياته.

حملة شيركوه الثانية على مصر

كان «نور الدين» أكثر حرصا من «عمورى» على غزو مصر، وذلك لأنه إضافة لأهميتها العسكرية والاقتصادية، فقد كانت أكثر أهمية لمشروع الوحدة الدينية الذى كان يفكر فيه «نور الدين».. حيث كان يخطط فى إزاحة الخلافة الفاطمية (وهم شيعة) من مصر حتى يضع كل المسلمين تحت راية الخلافة العباسية (وهم سنة) ولذلك طلب «نور الدين» من «أسد الدين شيركوه» غزو مصر مرة أخرى فى سنة ١١٦٧ خاصة بعد استغاثة الخليفة «العاضد» بـ«نور الدين» بعد استبداد وظلم شاور للناس.. ورأى «نور الدين» فى ذلك فرصة للانتقام من «شاور» الذى استعان بالصليبيين ضد «شيركوه».. غادرت الحملة دمشق فى يناير ١١٦٧ بقيادة «شيركوه» ومعه ابن أخيه «صلاح الدين»، وفى ذلك يقول الشاعر «عرقلة الدمشقى» يمدح «صلاح الدين»:

رَبٍّ كمــا ملكتها يوســـف الـ

صديق من أولاد يعقـــــوب

يملكها فى عصرنا يوسف الـ

صـــــادق مــــن أولاد أيوب

وصل شيركوه إلى الدلتا عبر النيل عند أطفيح إلى الجيزة وعسكر فى مواجهة الفسطاط على الضفة الغربية للنيل تحسبا لاستغاثة «شاور» بالصليبيين، والذى حدث فعلا، فجاء «عمورى» مسرعا بعد أن تعهد له «شاور» بدفع ٤٠٠ ألف دينار إذا طردوا «شيركوه» من مصر.. اتجه «شيركوه» إلى الصعيد ومعه «صلاح الدين» فلحق بهما الصليبيون و«شاور»، وقرب الأشمونين فى محافظة المنيا دارت معركة البابين فى مارس ١١٦٧ التى خاضها «شيركوه» رغم تحذيرات أمراء جيشه من قوة العدو ونصيحتهم له بعبور النيل والهرب إلى الشام، ولم يوافق على خوض المعركة إلا «صلاح الدين» ومعه «شرف الدين برغش» وتولى «صلاح الدين» قيادة فرقة القلب وجعل «شيركوه» نفسه على أحد الجناحين، وعند بداية المعركة ركز الصليبيون جهدهم على القلب ظنا منهم أن «شيركوه» يقوده بنفسه، بينما كان «صلاح الدين» يناوشهم ثم يتراجع حتى يغريهم بالتقدم، وعندما تقدموا التف «شيركوه» حولهم وحمل عليهم وهزمهم هزيمة نكراء.. وعاد «عمورى» ليعسكر قرب الفسطاط على الضفة الغربية للنيل بينما اتجه «شيركوه» شمالا ليحتل الاسكندرية، فاستقبله أهلها طائعين،

وفتحوا له أبواب المدينة ليدخلها فى أمن وهدوء.. وبعد فترة ترك «صلاح الدين» نائبا له على الإسكندرية وعاد بأغلب الجيش إلى الصعيد، فاستولى عليه، وعند محاصرته لمدينة قوص.. أسرع «عمورى» يحاصر مدينة الإسكندرية، ولم يكن مع «صلاح الدين» إلا ألف جندى، فأرسل إلى عمه يستنجد به، فعاد مسرعا أواخر يونيه ١١٦٧، وتم التفاوض مع الصليبيين ليتم الاتفاق على انسحاب «شيركوه» والصليبيين من مصر مع تبادل الأسرى.. وليترك الجانبان مصر ينعم بها «شاور» من جديد ولم يرحل «عمورى» إلا بعد أن فرض على «شاور» دفع جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار مع بقاء قوة من الصليبيين لحماية أبواب القاهرة إضافة إلى وجود مندوب عن الملك الصليبى فى القاهرة للمساعدة فى تسيير أمور الحكم.

عاد «صلاح الدين» مرة ثانية إلى دمشق وقرر ألا يبرحها حتى لا يعانى الشظف والعنت الذى لقيه فى صعيد مصر وفى الإسكندرية.. ولكن الأحداث السياسية لم تلبث أن دفعته للمرة الثالثة إلى مصر، حيث المجد هذه المرة.. وذلك بعد أن أثقلت الجزية السنوية كاهل الدولة الفاطمية، فلم يجد «شاور» إلا المناورة وطلب المساعدة من «نور الدين»، وتم عقد اتفاقية بين الطرفين على أن يتم تأكيدها بالمصاهرة، فيتزوج ابن شاور «الكامل شجاع» من أخت «صلاح الدين» أو يتزوج «صلاح الدين» من ابنة «شاور».. وفى المقابل خرج

«عمورى الأول» على رأس جيشه ليغزو مصر للمرة الرابعة.. فثار الخليفة «العاضد» وأرسل إلى «نور الدين» يستغيث به لرد الصليبيين، وبعث إليه بخصلات من شعر نسائه استدرارا لعطفه ويصف «صلاح الدين» موقف «نور الدين» قائلا:

«لما أتت كتب «العاضد» إلى «نور الدين» يستغيث به من الإفرنج، ويطلب إرسال العساكر قال: تمضى إلى عمك «أسد الدين» بحمص مع رسولى إليه ليحضر، وتحثه أنت على الإسراع، فما يحتمل الأمر التأخير.. ففعلت، وخرجنا من حلب، فما كنا على بعد ميل منها حتى لقيناه قادما فى هذا المعنى، فأمر «نور الدين» بالسير، فلما قال «نور الدين» ذلك التفت إلى عمى وقال: تجهز يا «صلاح الدين» لذلك وانفض المجلس.. وتجهز «أسد الدين» ولم يبق غير المسير فقال لى «نور الدين»: لابد من مسيرك مع عمك، فشكوت إليه الضائقة، فأعطانى ما تجهزت به».

وصل «عمورى» إلى بلبيس ودخلها عنوة وقتل الكثير من أهلها وأحرق دورها.. ثم تقدم إلى القاهرة فى الوقت الذى وصل فيه الأسطول الصليبى إلى تنيس (قرب بورسعيد)، ولكنه لم يستطع التقدم فى النيل للعقبات الكثيرة التى وضعها المصريون.. فما كان من «شاور» إلا إحراق الفسطاط.. وفى أواخر سنة ١١٦٨ وصلت حملة «شيركوه» إلى مصر، وفرح بها المصريون كثيرا، وعندما رأى «عمورى» التفاف المصريين حول «شيركوه» تأكد من فشل مسعاه،

وبالفعل تمت هزيمته وعاد إلى بيت المقدس.. وعلى الفور استدعى الخليفة «العاضد» «شيركوه» وعينه وزيرا لمصر ولقبه بالمنصور.. فغضب «شاور» وحاول استدعاء الصليبيين لمساعدته، ولكن «شيركوه» أمر بالقبض عليه وإعدامه هو وابنه الكامل فى يناير ١١٦٩، وبعدها دخل «شيركوه» و«صلاح الدين» القاهرة ظافرين.

صلاح الدين وزيراً

مات «شيركوه» بعد شهرين من توليه الوزارة، فقام الخليفة الفاطمى بتولية «صلاح الدين» الوزارة مكان عمه، وهو فى الحادية والثلاثين من عمره، ولقبه الخليفة بالملك الناصر المظفر.. ويذهب بعض المؤرخين إلى أن «صلاح الدين» قد تمنع كثيرا فى قبول الوزارة، لكنه قبل تحت ضغوط الخليفة و«نور الدين» الذى رأى أن صلاح الدين من السهل احتواؤه لحداثة سنه وقلة خبرته، عكس عمه القوى «أسد الدين شيركوه».. ولم يرض عن وزارة «صلاح الدين» كل أمراء الجيش لقناعتهم أن كلا منهم الأحق منه بالوزارة، ولذلك امتنعوا عن الدخول عليه وعن خدمته، ولكنهم - لحسن الحظ - لم يتحدوا ضده، لأن كل واحد منهم كان مشغولا بنفسه وقبل أن يستفحل الخلاف سعى بين أمراء الجيش فقيه فاضل اسمه «الهكارى» واستطاع أن يجمع القلوب حول «صلاح الدين» بعد أن أقنع كلا منهم على انفراد بأن صالحه فى أن يكون «صلاح الدين» نائبا للسلطان ووزيرا للخليفة، فقبلوا جميعا إلا أميرا يدعى (الياروقى) والذى عاد إلى الشام مع بعض رجاله فقوى بذهابه ساعد الوزير الجديد.

الوزير الشاب.. أمير القلوب

ما إن تولى «صلاح الدين» الوزارة حتى استمال قلوب الناس إليه، حيث بذل المال الذى كان «شيركوه» قد جمعه،

كما أحسن لكل الجنود فى جيشه فأحبوه وأطاعوه.. وعمل على نشر الأمن والسلام، فكسب ود المصريين واحترامهم بعد أيام الشدة والعسر التى عاشوها أيام الوزير «شاور».. ووجد المصريون فى «صلاح الدين» الوزير العادل المتسامح الحازم والحكيم فى معالجة القضايا ذات الشأن والخطر.

وجد «صلاح الدين» فى مصر الأديب «عبدالرحيم البصتنانى» والملقب بالقاضى الفاضل والذى تحول إلى أخلص مستشاريه والناصح الأمين والحكيم له.. وبعد أن استقر المقام بـ «صلاح الدين» فى مصر أرسل إلى السلطان «نور الدين» فى دمشق أن يبعث إليه والده «نجم الدين أيوب» ثم خرج فى جمع كبير من الأمراء والجنود لاستقبال والده على أبواب مصر، ثم أرسل إلى السلطان أن يبعث إليه أخويه شمس الدولة طوران شاه، وسيف الدين العادل، فتردد السلطان بعض الوقت، ثم أرسل الأخوين ومعهما مدد من الجنود بقيادة «طوران شاه».

ثورة العبيد

عمل «صلاح الدين» على وأد الفتن فى مهدها .. وكان أخطرها تلك التى دبرها أحد رؤساء قصر الخلافة وهو خصى أسود يدعى «مؤتمن الدولة»، والذى دخل فى مفاوضات سرية مع الصليبيين للقضاء على «صلاح الدين» حيث أرسل لهم رسالة سرية فى (نعل جديدة) ووقعت الرسالة فى يد «صلاح الدين»، فأخفى مشاعره حتى يدبر أمره، وانتظر حتى خرج «مؤتمن الدولة» إلى قصر له خارج القاهرة فأرسل له من قتله وذلك فى أغسطس ١١٦٩ ثم عزل جميع أتباعه وأبعدهم عن قصر الخلافة.. وكان لهؤلاء الخصيان السود أتباع كثيرون يقدر عددهم بأكثر من خمسين ألفا، فثاروا وتجمعوا للفتك بجنود «صلاح الدين»، واستمر القتال بين الفريقين عدة أيام، جرى خلالها نهب وحرق كثير من الدور.. فأمر «صلاح الدين» بحرق مقر إقامة هؤلاءالسود، وهى منطقة تدعى المنصورة بالقرب من باب زويلة - بمن فيها وما فيها - وعندما علم الثوار السود بالخبر حتى خارت قواهم وانتهى الأمر بالقضاء عليهم جميعا على يد «طوران شاه» وجنوده.. واستعمل «صلاح الدين» على القصر رجلا عرف بالحزم والعزم يدعى بهاء الدين قره قوش «قراقوش» وهو خصى أبيض اشتهر فيما بعد بما نسب إليه من النوادر المخترعة عن (حكم قراقوش).. وللقضاء على كل

الفتن أمر «صلاح الدين» بإشعال النار فى ثكنات حرس الخليفة من الأرمن، ليقضى على كل عناصر الخيانة فى مصر، ولم يبق أمامه إلا كبار الإقطاعيين وملاك الأراضى الذين يعملون على مساندة الفساد فتخلص منهم وأحل محلهم فى أراضيهم جماعة من رجاله من أهل الشام..واستطاع «صلاح الدين» أن يخفى طموحاته وخططه عن السلطان «نورالدين»، وسعى فى الوقت نفسه إلى إرضاء المصريين والخليفة الفاطمى حتى يكونا له درعا إذا ثارت ثائرة السلطان ضده لأى سبب أو فى أى وقت.. كما تحاشى التدخل فى معتقدات المصريين وغالبيتهم من الشيعة تبعا للخلافة الفاطمية، ورغم أنه سنى فإنه ترك الناس ومعتقداتهم، والغريب أن الناس -بشكل أو بآخر- تحولوا إلى المذهب السنى ربما حبا فى «صلاح الدين»- أو تقربا إليه أو ميلا مع اتجاه (البوصلة) لنظام الحكم الجديد.. وفى الوقت نفسه عمل «صلاح الدين» على نشر المذهب السنى بطرق غير مباشرة فأسس مدرستين كبيرتين يدعوان للمذهب السنى، وراح فى هدوء يحيل القضاة الفاطميين إلى التقاعد والدفع بدلا منهم بقضاة من المذهب الشافعى السنى.. وقد اتفقت رغبة «صلاح الدين» مع رغبة السلطان «نور الدين» الذى كان يلح بتغيير خطبة الجمعة فى مصر لتكون باسم الخليفة العباسى بدلا من الخليفة الفاطمى.. وقد تباطأ «صلاح الدين» فى الأمر حتى يضمن ولاء كل المصريين ولأنه يرى فى الخليفة الفاطمى «العاضد» سندا له فى مواجهة «نور الدين».

معركة دمياط

أحس الصليبيون فى بيت المقدس أنهم أصبحوا بين شقى الرحى يعد نجاح «نور الدين» فى ضم مصر إلي دولته، وعلى الفور أرسل «عموري الأول» إلى امبراطور ألمانيا وملوك فرنسا وانجلترا وصقلية وغيرهم يطلب القيام بحملة جديدة لإنقاذ الصليبيين فى الشرق.. ولكن الصراع الذى كان دائرا بين البابوية والامبراطورية حال دون تحقيق مطالب «عمورى» فاتجه إلى الدولة البيزنطية يطلب مساعدتها، فوافق الامبراطور «مانويل كومنين»، وأعد أسطولا كبيرا تحرك فى يوليو ١١٦٩ متجها إلى قبرص، ثم إلى صور، ومنها إلى عكا، لوضع خطة غزو مصر وذلك خشية أن يهاجمه «نور الدين» فى آسيا الصغرى، وزحف الصليبيون فى ١٦ أكتوبر ١١٦٩ من عسقلان إلى الفرما، ومنها إلى دمياط، حيث نصبوا معسكرهم أمامها.. بينما فشل الأسطول البيزنطى فى دخول ميناء المدينة لوجود السلاسل الحديدية الممتدة بعرض النيل فى الميناء لتمنع دخول سفن الأعداء.

وأسرع «صلاح الدين» بتحصين بلبيس والقاهرة والاسكندرية اعتقادا منه أن هذه الحملة ستسير على خطى الحملات السابقة.. ولكن ذهاب الحملة إلى دمياط أربك خطته فأرسل إلى «نور الدين» قائلاً: «إن تأخرت عن دمياط ملكها الفرنج، وإن سرت إليها خلفنى المصريون (الفاطميون)

فى أهلها بالشر وخرجوا عن طاعتى وساروا فى أثرى والفرنج أمامى).. وفى نهاية الرسالة طلب الدعم من «نور الدين»، الذى أرسل إليه العساكر أرتالا يتلو بعضها بعضا.. ودخل «تقى الدين عمر ابن شقيق صلاح الدين» و«شهاب الدين»(خاله) دمياط فأرسل إليهما الإمدادات، واستغل أهل دمياط فيضان النيل، فوضعوا على سطحه أوانى فخارية بها مواد مشتعلة كانت تصطدم بسفن الأسطول البيزنطى وتضره أبلغ الضرر، مما اضطر الأسطول إلى الابتعاد عن النيل وعن المدينة.. وبدأت مؤن الاسطول تنفد فعرض قائده على «عمورى» أن يقوم بهجوم شامل على دمياط، فتردد «عمورى» وقرر الانسحاب إلى عسقلان بعد فشل غزوته على مصر، ليجد «نور الدين» قد هاجم الكثير من البلاد الصليبية فى الشام.. وانسحب الأسطول البيزنطى بعد أن هد جنوده الجوع والتعب، مما أدى إلى غرق أغلب سفنه وغرق غالبية جنوده.. ولم تستغرق هذه الحملة سوى خمسين يوما فقط، وقد فشلت فى تحقيق أهدافها خاصة فى محاولة الأسطول البيزنطى كسر حصار الأسطول المصرى عليهم وقطعه كل صلة بحرية بين القدس وأوروبا، وقطعة كل الامدادات التى تأتيهم من هذه الناحية.. وبعد هزيمة الفرنج فى دمياط طاردهم «صلاح الدين» حتى استولى على مدينة العقبة..وقد شجع فشل هذه الحملة «نور الدين» على تقوية الاتصال بين القاهرة ودمشق، لأن سيطرة الصليبيين على

الأردن ووادى عربة، بما فيه من حصون مثل الكرك والشوبك وغيرهما، أتاحت لهم التحكم فى صحراء النقب بين البحر الميت والبحر الأحمر.. وهكذا أصبح طريق الاتصال البرى مقطوعا بين مصر وبلاد الشام الإسلامية. مما دفع الصليبيين إلى الاعتداء على القوافل المتنقلة بين الحجاز ومصر والشام.. وقد هاجم «نور الدين» فى أبريل ١١٧٠ حصن الكرك ليسمح لقافلة بقيادة «نجم الدين أيوب والد صلاح الدين» بالعبور إلى مصر.. ولأن حلم الوحدة كان دوما أمام «نور الدين» فقد استغل وفاة شقيقه «قطب الدين مودود» حاكم الموصل ونشوب الخلاف بين ولديه فى الاستيلاء على الموصل فى أوائل سنة ١١٧١وبذلك امتدت الجبهة الإسلامية من الفرات إلى النيل، لتربط بين الموصل وحلب ودمشق والقاهرة.

بداية مهاجمة الصليبيين

فى أول ديسمبر ١١٧٠ خرج «صلاح الدين» لمهاجمة قلاع الصليبيين على شواطىء فلسطين، وبدأ بحصار قلعة الداروم (الدارون -دير البلح) جنوبى غزة، وحاول الاستيلاء على غزة، فخرج عمورى الأول حاكم بيت المقدس لمواجهة «صلاح الدين» الذى انسحب بعد أن هزم الصليبيين فى هذه المعركة.. وعاد إلي مصر ليبنى عددا كبيرا من السفن، ثم حمل أجزاءها على ظهور الجمال عبر سيناء حتى البحر الأحمر ليتم تجميعها، وليقود بها حملة بحرية ضد آيلة

بالتنسيق مع هجوم برى فى نهاية ديسمبر ١١٧٠، واستطاع اقتحام المدينة وأسر حاميتها (سار صلاح الدين فى عملية بناء هذه السفن على مافعله «تحتمس الثالث» من قبل وقد تم استخدام الطريقة نفسها فى الحرب العالمية الثانية، كما استخدمها المصريون فى حرب أكتوبر١٩٧٣ عندما قهروا الكيان الصهيونى).

توحيد قوى المسلمين

وجد «صلاح الدين» أن توحيد قوى المسلمين فى الشرق لن يتم إلا بالقضاء على الخلاف المذهبى، فعمل على تضييق الخناق على الخلافة الفاطمية الشيعية، والتى باتت مشكلة كبيرة للسلطان «نور الدين»، خاصة بعد سيطرته على الموصل ١١٧١، ولم يكن «صلاح الدين» أقل حماساً من «نور الدين» للمذهب السنى، حيث كان شافعياً، فعمل على تدعيم المذهب الشافعى فى مصر، فحول دار المعونة ودار العدل فى الفسطاط إلى مدارس للشافعية.. وعندما مرض الخليفة الفاطمى «العاضد»، كثر إلحاح «نور الدين» بضرورة التخلص منه، فجمع «صلاح الدين» أركان حربه ـ وكانت هذه عادته فى كل الأمور المهمة ـ فقام من بينهم عالم يقال له «الأمير العالم»، وأخذ سبيله إلى المسجد وخطب للخليفة العباسى، وأمر «صلاح الدين» اتباعه بعدم إبلاغ الخليفة الفاطمى، وقال: إن عوفى فهو يعلم وإن توفى فلا ينبغى أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته».. وتم الدعاء فى القاهرة فى أول جمعة فى سبتمبر ١١٧١ للخليفة العباسى المستضىء أمير المؤمنين، ليتم العودة إلى المذهب السنى فى هدوء بعد ٢٠٩ سنوات للخلافة الفاطمية.

وقد توفى الخليفة «العاضد»- آخر الخلفاء الفاطميين- بعد هذا الانقلاب بثلاثة أيام من دون أن يعلم بزوال خلافته، ولتزول الدولة الفاطمية برحيله.

صلاح الدين ونور الدين.. صدام الحليفين

وجد «صلاح الدين» نفسه أمام خيارين: إما أن يظل نائباً لـ «نور الدين» فى مصر معرضاً نفسه للعزل أو النقل فى أى وقت.. وإما أن يعلن استقلاله بمصر ليصبح فى مواجهة مع «نور الدين»، وقد آثر «صلاح الدين» التريث والمراوغة حتى يحسم أحد الخيارين.. وقد ظهرت هذه المراوغة عندما طلب منه «نور الدين» مهاجمة حصن الشوبك فى وادى عربة، فخرج على رأس جيشه وحاصر الحصن الذى طلب أهله مهلة عشرة أيام حتى يتم تسليمه، وفجأة علم «صلاح الدين» بخروج «نور الدين» على رأس جيش كبير لمساعدته فى حصن الشوبك، فقرر الانسحاب إلى مصر بحجة ثورة الفاطميين، والحقيقة أنه خشى الاجتماع مع «نور الدين» فيتم عزله أو القبض عليه.. فغضب نور الدين وعزم على الذهاب إلى مصر لتأديب نائبه «صلاح الدين» الذى جمع أمراءه وخاصته للتشاور فى الأمر، فذهب بعض المتحمسين إلى قتال «نور الدين» إذا أتى إلى مصر، ولكن «نجم الدين أيوب ـ والد صلاح الدين» قال: «نحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد».. وطلب فض الاجتماع، ثم لام «صلاح الدين» على إفشاء سره أمام هذا الجمع.. وطلب منه مراسلة «نور الدين».. وكان بعض من حضر الاجتماع قد بعث لـ«نور الدين» بما حدث فهدأت ثورته.

وفى العام التالى ١١٧٣ خرج «صلاح الدين» بنفسه لغزو

الكرك والشوبك وغيرهما من الحصون الصليبية بناء على طلب «نور الدين» الذى أراد اختبار ولاء «صلاح الدين» ومدى انصياعه لأوامرالسلطان.. وقد حاصر «صلاح الدين» الشوبك وحصن الكرك.

وفى الوقت نفسه حاول تكوين دولة الأيوبيين، فأرسل أخاه «طوران شاه» إلى بلاد النوبة فعاد ليؤكد على أنها بلاد فقيرة قليلة الجدوى، فأرسله إلى اليمن ١١٧٤ فأخضعها وأدخلها تحت سيادة بنى أيوب.. وأثناء حصاره لحصن الكرك ١١٧٣ علم صلاح الدين بخروج «نور الدين» لمساعدته فسارع بالعودة إلى مصر متحججاً بمرض والده، والغريب أن «نجم الدين أيوب» قد مات فعلاً قبل وصول «صلاح الدين» ولم يكن ذلك بسبب المرض ولكن بسبب سقوطه من فوق حصانه.

محاولة اغتيال

دبر بعض الشيعة وبعض المنتفعين من النظام الفاطمى السابق مؤامرة فى القاهرة (مارس - أبريل ١١٧٤) تهدف إلى إحياء الخلافة الفاطمية، وكان على رأس المتآمرين الشاعر «عمارة اليمنى»، والذى كان سنياً شافعياً أتى من اليمن فأحسن الفاطميون إليه كثيراً، فكان شديد الإخلاص لهم.. وعمل هؤلاء المتآمرون على الاتصال بالحشيشية الباطنية وبالصليبيين طلباً للمساعدة.. ويرى بعض المؤرخين أن الشاعر اليمنى « عمارة اليمنى» هو الذى أغرى «طوران شاه»

بالذهاب إلى اليمن حتى يترك أخاه وحيداً فيسهل الانقلاب عليه.. وكانت الخطة تتركز فى غزو الصليبيين لمصر بالتوازى مع إشعال ثورة داخلية فى القاهرة والفسطاط ليسهل القضاء على «صلاح الدين» وقام المتآمرون بالاتصال بـ «وليم الثانى» ملك صقلية حتى يهاجم أسطول الإسكندرية واختار المتآمرون فترة غياب «طوران شاه» فى اليمن لتنفيذ خطتهم حتى لا يحل محل أخيه عند قتله.. وقاموا بإعداد قائمة بأسماء الخليفة والوزير وأعضاء الجهاز الحكومى الجديد.. وقد تكشفت تفاصيل المؤامرة عن طريق الفقيه الواعظ (زين الدين على بن نجا)، الذى تظاهر بأنه ضمن المتآمرين، وكان يمد «صلاح الدين» بالمعلومات أولاً بأول، والذى أمر بالقبض على المتآمرين وإعدامهم وفى مقدمتهم الشاعر «عمارة اليمنى» وذلك فى ١١٧٤، وبعد ذلك سارع «صلاح الدين» بإرسال جيش بقيادة الملك العادل لإخماد ثورة فاطمية أخرى قامت فى أسوان بقيادة «كنز الدولة» مع بعض الشيعة والجند السودان، وتم القضاء على هذه الثورة فى سبتمبر ١١٧٤.

القدر يساعد البطل

شاءت الأقدار أن يخلو المسرح السياسى من كل أبطاله ليقف عليه «صلاح الدين» وحده، بعد أن تهيأت كل الأسباب لتجعل منه بطلاً عظيماً وتخليصه من كل شىء يشغله عن تحقيق بطولاته، فبعد رحيل الخليفة «العاضد» فى ١١٧١ رحل «نجم الدين أيوب» فى ١١٧٣، وفجأة رحل «نور الدين

زنكى» فى منتصف مايو سنة ١١٧٤، ليترك الميدان فسيحا أمام طموحات «صلاح الدين»، وقد حكم «نور الدين» ٢٩ سنة، وامتدت مملكته من أرمينيا حتى وادى النيل، واستطاع أن يضع حداً للتوسع الاستعمارى الصليبى.. وخلف «نور الدين» ابنه الصبى الملك الصالح إسماعيل، وكان فى الحادية عشرة من عمره.. كما توفى «عمورى الأول» ملك بيت المقدس فى صيف ١١٧٤ وتولى ابنه الصغير «الأبرص بلدوين»، مما أضاع على الصليبيين فرصة استغلال الانقسامات التى حدثت بين أمراء الدولة النورية.. ولتتشابه ظروف الدولتين.. وهكذا استطاع «صلاح الدين» تحصين دعائم ملكه فى مصر بداية من خريف ١١٧٤، ليبدأ فى التخطيط لجهاد الصليبيين، ولكنه عمل أولاً على تحقيق اتحاد المسلمين قبل البدء فى جهاد الصليبيين.

الاتحاد قبل الجهاد

امتدت جهود «صلاح الدين» لدعم الوحدة الإسلامية من نهاية ١١٧٤ وحتى ١١٨٧، وكانت المشاكل قد بدأت برحيل «نور الدين»، وتولية ابنه الطفل «الملك الصالح إسماعيل»، والذى أصبح ملكاً على حلب ودمشق.. ولكن نور الدين ترك أيضاً ابن أخيه «سيف الدين الغازى» حاكم الموصل، وكان فاسقاً متهوراً، وسارع بعد وفاة عمه إلى احتلال نصيبين والخابور وحران والرها وسروج والرقة وغيرها من الأماكن التى كانت تابعة لـ «نور الدين» فى الجزيرة الفراتية.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد حيث تصارع أمراء الأسرة النورية على من يكون وصيا على «الملك الصالح إسماعيل».. وانتهى الأمر بأن احتل الأمير «شمس الدين محمد على بن الداية» قلعة حلب بوصفها مركز الدولة، بينما تحفظ الأمير «شمس الدين محمد بن المقدم» على «الملك الصالح إسماعيل» فى دمشق.. وفى المقابل أرسل «صلاح الدين» إلى دمشق يعلن حقه فى الوصاية على «الملك الصالح إسماعيل» وأملاك «نور الدين»، كما عنف الأمراء النورية على تقاعسهم عن نصرة «الملك الصالح»، وهددهم بأنه سيحضر بنفسه لنصرة «ابن نور الدين» ويقتص منهم.. ولكنهم أهملوا كتابه ولم يعبأوا به، فأملى «صلاح الدين» على القاضى الفاضل رسالة إلى الخليفة العباسى المستضىء بالله فى بغداد يقول فيها: «وتوافت إلينا الأخبار بما آلت إليه المملكة النورية من

تشعب الآراء وتوزعها، وتشتت الأمور وتقطعها، وان كل قلعة قد خص فيها صاحب، وكل جانب قد طمح إليه طالب، والإفرنج قد بنوا قلاعاً يتخوفون بها الأطراف الإسلامية، ويضايقون بها البلاد الشامية، وأمراء الدولة النورية قد سجن كبارهم وعوقبوا وصودروا، والمماليك والأعماد الذين خلقوا للأطراف لا للصدور، وجعلوا للقيام لا للقعود، قد مدوا الأيدى والأعين والسيوف وسارت سيرتهم فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف، وكل واحد يتخذ عند الإفرنج يدا ويجعلهم لظهره سنداً».

وراح «صلاح الدين» يرقب الأمر بهدوء وروية ويتحين الفرص خاصة أن فلسطين والشام، وهما مملكتان عظيمتان، يتولى أمرهما ملكان طفلان.. وعمل «صلاح الدين» على اكتساب ود أهل الشام وذلك بالاحتفاء بالملك الصغير «الصالح إسماعيل» وإبداء الولاء له وضرب النقود باسمه والخطبة له على المنابر.. وفى هذا الوقت سارع «عمورى الأول» ملك بيت المقدس إلى حصار بانياس التى صمدت لمدة أسبوعين فخرج ابن المقدم على رأس الجيش الدمشقى لا ليحارب الصليبيين ولكن ليلاطفهم ويحاول عقد هدنة معهم فتمنعوا فهددهم بأنه سيستعين بقوة «صلاح الدين» فى مصر، فوافق «عمورى» على الهدنة مع ابن المقدم مما أغضب «صلاح الدين» لعلمه بأن هذه الهدنة لن تكون إلا ضده.

ملك مصر والشام

فى ظل الانقسامات الحادة بين أمراء البيت النورى ظهر «سعد الدين كمشتكين» وهو أحد أمراء «نور الدين» ونجح فى نقل «الملك الصالح إسماعيل» من دمشق إلى حلب فى صيف ١١٧٤ ثم اعتقل ابن المقدم لينفرد هو بحكم حلب تحت عباءة «الصالح إسماعيل».

واستغاث «ابن المقدم» بـ «سيف الدين غازى» وعرض عليه تسليمه دمشق.. ولكن «غازى» تراخى فاضطر «ابن المقدم» إلى الاستعانة بـ «صلاح الدين» لتأتيه فرصة تحقيق طموحاته فى إنجاز الوحدة، فتحرك على رأس ٧٠٠ فارس تحت ستار نصرة «الملك الصالح إسماعيل».. وترك على مصر أخاه الملك العادل.. ووصل إلى دمشق أواخر نوفمبر ١١٧٤ وهو يقول: «إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم».. واستقبله أهل المدينة بترحاب شديد وقضى ليلته فى بيت أبيه.. وبعد أن أمتلك دمشق جاءه رسول من حلب يستفسر عن نواياه فقال له: «أعلم يا هذا أننى ما وصلت إلى الشام إلا لجمع كلمة الإسلام، وتهذيب الأمور وحياطة الجمهور، وسد الثغور وتربية ولد «نور الدين»، وإعادة ما أخذ منه وكف عادية المعتدين).. مما جعل أهل الشام يقبلون عليه ويساعدونه لتحقيق أهدافه خاصة بعد أن منح أهل دمشق الكثير من الهبات والعطايا، ورفع عنهم

المظالم وبعد أن رتب شئون دمشق سلمها إلى أخيه «سيف الدين طغتكين» ثم تحرك إلى حمص واستولى عليها فى ١٠ ديسمبر ١١٧٤ وترك من يحاصر قلعتها، ثم سار إلى حماة وكان حاكمها الأمير «عز الدين جورديك» أحد الأمراء الذين رفضوا العمل تحت وزارة «صلاح الدين» فى مصر.. ولكنه أقنعه بأنه جاء للدفاع عن «الملك الصالح إسماعيل» فسلمه المدينة بالتراضى فى ٢٨ ديسمبر ١١٧٤ وقبل «جورديك» أن يكون رسولا من «صلاح الدين» إلى «كمشتكين» فى حلب يطلب منه فك الأسرى وإطلاق المسجونين وعدم تفريق كلمة المسلمين.. ولكن «كمشتكين» اعتقل «جورديك» فسارع «صلاح الدين» إلى حصار حلب وقال لأهلها إنه لم يأت معاديا وإنما أتى ليخلص «الملك الصالح إسماعيل» من شرذمة الأمراء وعلى رأسهم «كمشتكين».. ولكن «الصالح إسماعيل» رفض كلام «صلاح الدين» وبكى بين أهل حلب حتى أبكاهم وأقنعهم بأن «صلاح الدين» إنما جاء ليستولى على ملكه.. ورأى «كمشتكين» أنه لن يصمد طويلا أمام «صلاح الدين» فأرسل سرا إلى شيخ الجبل «راشد الدين سنان» زعيم طائفة الإسماعيلية الباطنية الشيعية يطلب معاونته فأرسل إليه مجموعة من الفدائيين لاغتيال «صلاح الدين» الذى استقبلهم فى خيمته وكشف أمرهم وأمر بقتلهم جميعا.. واستمر حصار حلب ليرسل «كمشتكين» إلى «ريموند الثالث» حاكم طرابلس والوصى على مملكة بيت المقدس يطلب

مساعدته وسارع «صلاح الدين» بإرسال قوة للإغارة على أنطاكية حيث عادت بغنائم كثيرة فلجأ «ريموند» إلى مهاجمة حمص فترك «صلاح الدين» حصار حلب فى فبراير ١١٧٥ عائدا إلى حمص وفى الطريق استولى على بعلبك ثم عاد إلى دمشق.. وسارع «كمشتكين» بإطلاق سراح الأسرى الصليبيين من قلعة حلب ردا لجميل «ريموند» وبعد تجربة حصار حلب أدرك الأمراء النوريون خطورة «صلاح الدين» فتناسوا خلافاتهم، واتحدوا حيث أرسل «سيف الدين غازى» حاكم الموصل جيشا إلى الشام فى ربيع ١١٧٥ بقيادة أخيه «عزالدين» لينضم إلى الجيش الحلبى فى زحفه إلى حماة لمواجهة جيش «صلاح الدين » والذى عرض عليهم حقنا للدماء أن يترك لهم حمص وحماة على أن يتركوا له دمشق ليحكمها باسم «الملك الصالح إسماعيل» فرفضوا لأنهم كانوا يريدون دمشق أيضا.. ونشبت المعركة بين الجيشين عند قرون حماه فى أواخر أبريل ١١٧٥ وانتهت بنصر ساحق لـ «صلاح الدين» والذى زحف مباشرة إلى حلب ليستولى عليها ويمنع الخطبة «للصالح إسماعيل» والذى أرسل أهله يلتمسون الصلح مع «صلاح الدين» فوافق بشرط أن يتولى أمر ما بيده من بلاد الشام، وأن يتولوا هم ما بيدهم من تلك البلاد.. وبعد هذه المعركة أصبح لقب «صلاح الدين» (ملك مصر والشام) وقد أقر الخليفة العباسى فى بغداد هذا الوضع الجديد.

غازى رأس الأفعى

رفض «سيف الدين غازى» حاكم الموصل القبول بالأمر الواقع وأرسل إلى أمراء حلب يحرضهم ضد «صلاح الدين»، كما أرسل إلى «ريموند» حاكم طرابلس يعرض عليه التحالف ضد «صلاح الدين» ولإثبات حسن نواياه أطلق سراح من لديه من أسرى الصليبيين وذلك فى مايو ١١٧٥ وقد حاول «بلدوين» الرابع ملك بيت المقدس الصغير غزو دمشق فى ١١٧٥ ولكن «صلاح الدين» صبر على الصليبيين وجدد معهم الهدنة فى أغسطس ١١٧٥ وذلك حتى لا يحارب فى جبهتين جبهة الزنكيين فى الشمال والشرق وجبهة الصليبيين فى الجنوب والغرب.. واستطاع «سيف الدين غازى» فى ربيع ١١٧٦ جمع أمراء الجزيرة الفراتية وديار بكر وانضم إليهم «كمشتكين» وساروا جميعا لمواجهة «صلاح الدين» الذى سارع بطلب مدد لجيشه من مصر، والتقى الجيشان عند منطقة تل السلطان واستطاع «صلاح الدين» أن يهزمهم هزيمة ساحقة واستولى منهم على كثير من الأموال والذخائر والغنائم، وعمل على قطع المواصلات بين حلب والموصل وذلك للاستيلاء على قلعتى بزاعة ومنبج إلى الشمال الشرقى من حلب ثم استولى فى يونيه ١١٧٦ على قلعة عزاز ثم حاصر حلب.. وفى الوقت نفسه واصل الباطنية والخوارج مؤامراتهم لاغتيال «صلاح الدين» بعد أن اندس بعضهم بين حرسه بإيعاز من «كمشتكين» وكادت إحدى هذه المحاولات تنجح،

ففى صيف ١١٧٦ تسلل أحدهم إلى معسكره واستطاع طعنة ولكن الطعنات لم تكن قاتلة وتم كشف كل المتآمرين وقتلهم.. وأثناء حصار حلب خرجت إليه ابنة «نور الدين» وأخت «الملك الصالح» وهى فتاة صغيرة فقابلها بكل الحفاوة والتكريم وسألها عما يطلبه قومها فقالت إنهم يريدون قلعة إعزاز فوهبا لها وردها إلى حلب بكل التكريم والتقدير ثم فك الأسرى بعد أن داوى جراحهم وأغدق عليهم كثيرا فانطلق الجميع بالثناء عليه وتفانوا فى طاعته وخدمته.

واقتنع الناس أنه لم يأت غازيا وإنما جاء لنصرة الملك الصغير الذى قبل الصلح مع «صلاح الدين» على أن يبقى «صلاح الدين» على المدن التى استولى عليها ليصبح سيدا على دمشق وحمص وحماة ومدن كفر طاب والمعرة والبرين بينما لم يعد للملك الصالح إلا حلب وبعض البلاد الصغيرة.. وبعد صلح حلب قرر «صلاح الدين» الانتقام من الباطنية فسارع بحصار مصياف (مكان تجمعهم) وأوسعهم قتلا وأسرا وساق أبقارهم وضرب ديارهم.. فأرسل «راشد الدين سنان» مقدم الباطنية إلى «شهاب الدين الحارمى - خال صلاح الدين - وحاكم حماة ليشفع فيهم فذهب إلى «صلاح الدين» وأقنعه برفع الحصار عن مصياف.. فتركها بعد أن قضى على أى حلم للشيعة فى عودة الفاطميين الشيعة لمصر.. واستغل الصليبيون انشغال «صلاح الدين» فى حلب فخرج «بلدوين» الرابع - رغم صغر سنه ومرضه - بالاشتراك

مع «ريموند الثالث» بالإغارة على إقليم البقاع فتصدى لهم «طوران شاه» حاكم دمشق وهزمهم عند عين الجر فانسحبوا.

وتزوج «صلاح الدين» خلال هذه الفترة من «عصمة الدين خاتون» أرملة «نور الدين محمود» ليحصل على مزيد على الشرعية فى حكم أملاك «نور الدين» وذلك بعد أن حصل على شرعية الخليفة العباسى مما شجعه على ضرب الدنانير الذهبية باسمه (الناصر يوسف صلاح الدين بن أيوب سلطان مصر وملك سوريا) كما منع اسم الملك الصالح من خطبة الجمعة والتى صارت باسمه.. واستطاع «صلاح الدين» خلال هذه المرحلة تحقيق الوحدة بين مصر والشام ولم يبق أمامه إلا العراق.. واستطاع أيضا الحصول على أقصى إخلاص وحب من جنوده بعد أن وزع عليهم كل الغنائم.. ولم يبق شيئا لنفسه مما جعل الجنود أكثر رغبة فى الغزو والقتال والسير خلف السلطان إلى حيث يريد.. وفى دمشق أعطى «صلاح الدين» جنوده راحة من عناء الحرب وقرر العودة إلى مصر بعد غياب عامين.

تقوية دفاعات مصر

عاد «صلاح الدين» إلى مصر أواخر سنة ١١٧٦ ليعمل على تقوية دفاعاتها.. وكأنه كان يتوقع خطرا كبيرا من الصليبيين.. فراح يقيم الأبنية ويرفع علمه فى كل مكان (قماش أصفر يتوسطه نسر أحمر).. وفكر فى بناء قلعة للقاهرة على شاكلة القلاع الموجودة فى الشام.. وبدأ بناءها على جبل المقطم فى مكان يهيمن على القاهرة هيمنة كاملة مما يمكنها من صد أى عدوان خارجى أو داخلى يقع عليها.. وتم تصميم القلعة بحيث تكون البئر الخاصة بها داخل أسوارها تحسبا لأى حصار قد يطول عليها. فيجد من بداخلها المياه اللازمة لاستخداماتهم.

كما شرع فى إقامة سور ضخم حول القاهرة.. وقد استطاع «بهاء الدين قراقوش» المشرف على هذه التحصينات الانتهاء منها خلال عدة سنوات.. كما اهتم «صلاح الدين» بعمل التحصينات خارج القاهرة ويذكر أنه قد غادر القاهرة فى شعبان ٥٧٢ هـ (فبراير ١١٧٧) لتفقد تحصينات دمياط والإسكندرية، كما تفقد الأسطول وأمر بإصلاح سفنه المتآكلة.

وجاءت إلى الشام سنة ١١٧٧ حملة صليبية صغيرة بقيادة «فيليب الألزاسى» كما أرسل الامبراطور البيزنطى إلى بيت

المقدس يعرض على ملكها «بلدوين الرابع» إحياء فكرة القيام بحملة صليبية مشتركة لغزو مصر.. وعلى الفور أرسل الامبراطور البيزنطى «مانويل كومنين» إلى عكا أسطولا من سبعين سفينة تحمل قوة كبيرة استعدادا لغزو مصر ولكن التدبير لم يتم، وفشلت الحملتان ولكنهما زادتا من اقتناع «صلاح الدين» بضرورة زيادة تحصينات مصر.. استعدادا للجولة الحاسمة والتى قد يضطر خلالها لمواجهة الصليبيين فى الشام.

انتصار يعقبه هزيمة

رغم حرص «صلاح الدين» على حفظ العهود والمواثيق فإن الفرنج كانوا على العكس من ذلك تماما.. حيث استغلوا غياب السلطان عن الشام للإغارة على الجهات شمال الشام، فاستغل «صلاح الدين» انشغال جيش مملكة بيت المقدس فى تلك الهجمات وغادر مصر على رأس جيشه أواخر نوفمبر ١١٧٧ ليغير على المراكز الصليبية مثل الداروم وغزة.. ولما وجد تحصينات غزة قوية اتجه بسرعة نحو عسقلان.. فسارع «بلدوين الرابع» وجيشه بدخول عسقلان ليرتكب خطأ استراتيجيا قاتلا بعد أن حاصره «صلاح الدين» داخل المدينة لتصبح بقية مملكة بيت المقدس من دون ملك أو جيش واكتفى «صلاح الدين» بحصار عسقلان مؤقتا - وهذا خطأ استراتيجى أيضا - وراح يغير على المعاقل الصليبية القريبة مثل الرملة واللد حتى وصل إلى الجهات الواقعة بين

«أرسوف ونابلس».. واستغل «بلدوين الرابع» بعد «صلاح الدين» عن عسقلان وتسلل من المدينة هاربا وراح يجمع حوله جيشا لا بأس به.. واستغل فرحة جيش «صلاح الدين» بجمع الغنائم وهجم عليه بشكل مباغت ليهزمه هزيمة ساحقة فى موقعة تل الصافية التى كادت تكون نهاية «صلاح الدين» شخصيا والذى كتب إلى أخيه «طوران شاه» قائلا: «لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة.. وما نجانا الله منه إلا لأمر يريده سبحانه وتعالى».. وبعد نجاته عاد «صلاح الدين» إلى مصر فى حالة سيئة ووصل القاهرة فى ديسمبر ١١٧٧ وأقسم ألا يهدأ حتى يكسر الفرنج ويثأر منهم. وراح يعيد تكوين جيشه وتجهيزه بالعتاد والسلاح.. أما «بلدوين الرابع» فقد عاد إلى بيت المقدس ليستقبلوه استقبال الأبطال.. وراح جيشه يهاجم البلدات المسلمة فى شمال الشام مثل حماة وشيزر وشيد قلعة جديدة قرب بانياس عند بيت يعقوب فى مكان اسمه (مخاضة الأحزان) وقد سمى هذا المكان بهذا الاسم اعتقادا من الناس بأن نبى الله يعقوب كان ينفرد فيه بنفسه ويبكى على ولده «يوسف».

واستخدم «بلدوين» قلعته الجديدة لقطع الطرقات على قوافل المسلمين.. وطلب «صلاح الدين» من الصليبيين هدم هذا الحصن فطلبوا النفقات التى تكبدوها فعرض عليهم ٦٠ ألف دينار ثم رفعها إلى ١٠٠ ألف دينار ولكنهم رفضوا، وكان موقع هذه القلعة حرما بين المسلمين والصليبيين.

وفى أبريل ١١٧٩ اعـتدى الصليبـيون على بعض أهل دمـشق لرعيهم مـواشيهم بالقرب من بانياس، مما أدى إلى اشتبـاك بين الصليـبـيين بقيـادة «بلدوين الرابع» و«همـفرى» صـاحب حـصن بانيـاس والقوات الإسـلاميـة بقيـادة «عـز الدين فـرخشـاه» (ابن شقيق صلاح الدين).. وكان «صـلاح الدين» قد وصل إلى دمشق بعـد اعتداءات الصليبـيين على حمـاة وحـارم فـخـرج على رأس جيـشـه لنصـرة ابن أخـيه واسـتطـاع أن يهزم الجيش الصليبى هزيمـة سـاحـقـة ونجـا «بلدوين» بصـعـوبة بالغـة بعـد أن أصـيب إصابات خطيرة كما مات «همفرى» نتيجة إصابة قاتلة..

وسـارع «صـلاح الدين» بحـصـار قلعـة بيت الأحـزان فى مـايو ١١٧٩ ثم تركها بعد قليل وعاد بالغنائم والأسرى.. وأرسل إلى أخيه الملك العادل فى مصـر أن يبعث إليه بالمدد.. وراح يغيـر بشكل شبه يومى على الممتلكات الصليبية.. فلم يجد «بلدوين الرابـع» إلا الخـروج لمحـاربة «صـلاح الدين» وفى ١٠ يـونيـه ١١٧٩ دارت مـوقعـة قـرب تل القـاضـى فى سـهل مـرج العـيـون وانتصر فيها «صلاح الدين» انتصارا سـاحقا، وأسـر الكثير من قـادة الصـليـبـيـين منهـم «ريمـوند» حـاكم طرابلس و«بلدوين» حـاكم الرملة و«هوج» حـاكم طبـرية وغيـرهم. ونجـا «بلدوين» بصعوبة كبيرة وقد افتدى حاكم الرملة نفسه بمبلغ ٢٥٠ ألف قطعة من الذهب وإطلاق ألف أسير مسلم.. وسـارع «صـلاح الدين» بمهـاجـمـة حـصن بيت الأحـزان فـدخله فى أواخـر أغـسطس ١١٧٩ وأخـذ كل من فيـه أسـرى وكل من فيـه غنائم

ثم سوى به الأرض.. وتابع «صلاح الدين» انتصاراته فى صور وصيدا وبيروت بعد أن خرج أسطوله من الإسكندرية فى أكتوبر ١١٧٩ ليهاجم عكا وصفد وطبرية وأمام هذه الضربات القوية لم يجد «بلدوين» إلا طلب الهدنة فوافق «صلاح الدين» فى مايو ١١٨٠ على أن تكون الهدنة مع مملكة بيت المقدس فقط ولمدة سنتين ما جعله فى حل من مهاجمة الصليبيين فى شمال الشام وخاصة إمارة طرابلس.. وعاد الأسطول المصرى إلى الشام فى يونيه ١١٨٠ فهاجم انطرطوس مما أجبر «ريموند» أمير طرابلس على عقد هدنة مع «صلاح الدين» والذى استثمر هذه الهدنة فى تهدئة الحرب مع الصليبيين حتى ينتهى من «قلج أرسلان» حاكم قونية وأيضا أرمينيا الصغرى والتى خضع أميرها «روبين» الأرمنى وتعهد بعدم مهاجمة الرعاة الأتراك وذلك لاستثمارها فى توحيد القوى الإسلامية.. كما أتاحت له هذه الهدنة فرصة كبيرة للتحرك تجاه حلب والموصل.

استراحة المحارب.. ونشاط دبلوماسى

سارع حكام المسلمين فى كل مكان إلى محالفة ومهادنة «صلاح الدين» وفى أكتوبر ١١٨٠ حدثت المحالفة الكبرى لمدة سنتين والتى وقع عليها كل أمراء الجزيرة الفراتية «الموصل- أربيل- كيفا- ماروين- قونيا- أرمينيا» وأكدت هذه المحالفة على مكانة «صلاح الدين» وعلى إمكانية توحيد كل هذه الإمارات والممالك وامتد نفوذ «صلاح الدين» من البحر

الأسود والخليج العربى شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً وأصبح قادراً على المواجهة الكبرى مع الفرنج.

وسمع «صلاح الدين» بوفاة شقيقه «طوران شاه» فى الإسكندرية فسارع إلى مصر بعد أن أناب ابن أخيه «عز الدين فرخشاه» على الشام.. ووصل مصر فى يناير ١١٨١ وراح يقضى على الخونة خاصة العربان الذى عرف أنهم يصدرون الغلال للصليبيين.. وفى ظل اهتمامه بتقوية الداخل والحرص على مراقبة الخارج واصل نشاطه الدبلوماسى استعداداً للمعركة الكبرى حيث عقد معاهدة مع «إلكسيوس الثانى» امبراطور الدولة البيزنطية فى خريف ١١٨١، وذلك لتحييد الامبراطورية البيزنطية عند أى مواجهة مع الصليبيين.. وأرسل إلى الخليفة العباسى يسأله ولاية حلب وذلك ليكتسب الشرعية عند ضمه لحلب.. وفى تلك الأثناء أغارت السفن الصليبية على ميناء تنيس فى صيف ١١٨١ فأمر «صلاح الدين» بتقوية قلعتها وتجديد أسوارها.. كما أمر بترميم أسوار دمياط وإصلاح السلاسل الحديدية التى كانت تسد مدخل النيل من ناحية دمياط.. ويؤكد «المقريزى» على أن «صلاح الدين» أنفق على تحصين دمياط ألف ألف دينار.. كما زار الإسكندرية فى فبراير ١١٨٢ وأشرف على تقوية تحصيناتها.. وفى الوقت نفسه كان اهتمامه الأكبر بتنظيم الجيش وترتيب إقطاعات الجند.

أرناط.. سهم الغدر المسموم

بدأت أحوال الصليبيين الداخلية فى التدهور وذلك بعد تفاقم مرض «بلدوين الرابع» وتشككه فى كل من حوله.. وكان الصليبيون قد فقدوا حليفاً قوياً برحيل الأمبراطور البيزنطى «مانويل كومنين» سنة ١١٨٠ بعد هزيمته الساحقة على يد السلطان «السلجوقى قلج أرسلان» فى آسيا الصغرى سنة ١١٧٦، وقد عمل خلفه «إلكسيوس الثانى» على مهادنة «صلاح الدين» وعقد المعاهدة المعروفة فى سنة ١١٨١ وفى ظل هذا التخبط الصليبى بزغ نجم «رينودى شاتيون ريجنالد» والذى عرف عند العرب باسم «أرناط» وهو فرنسى مغامر أحبته الأميرة «كونستانس» الوصية على عرش أنطاكية وتزوجته سنة ١١٥٣ وقد اتصفت تصرفات «أرناط» بالتهور والحماقة وخيانة العهود مما سبب متاعب لا حصر لها للصليبيين فى الشام.. فهو تارة يستثير المسلمين، وتارة يعادى الأرمن فى أرمينيا الصغرى، وتارة أخرى يهاجم قبرص التابعة للامبراطورية البيزنطية.

وقد وقع «أرناط» فى أسر المسلمين سنة ١١٦٠ وظل أسيراً فى قلعة حلب من ١١٦٠-١١٧٧ دون أن يسعى أحد لفك أسره.. وعندما خرج من الأسر سارع بالزواج من وريثة حاكم الأردن وكانت أرملة سبق لها الزواج مرتين وورثت عن أبيها الأردن وحصنى الكرك والشوبك.. ورغم تجربة أسره الطويلة

فقد عاد «أرناط» إلى سابق سيرته المتهورة خاصة أن حصنى الشوبك والكرك يتحكمان فى طريق حج المسلمين.. وفى الطريق البرى بين شطرى دولة «صلاح الدين» فى مصر والشام.. ولأن «أرناط» لم يخلع عنه عباءة التهور وعدم الاتزان فإنه لم يقدر موازين القوى الجديدة والتى جعلت من «صلاح الدين» القوة الأكبر فى الشرق كله.. وفى سنة ١١٨١ نسى «أرناط» أو تناسى- الهدنة التى بين «صلاح الدين» ومملكة بيت المقدس وخرج على رأس قوة من جيشه إلى تيماء وهى واحة تقع فى منتصف الطريق بين الأردن والمدينة المنورة قاصداً الزحف الى المدينة المنورة لتدمير قبر الرسول -صلى الله عليه وسلم- فسارع «فرخشاه» نائب «صلاح الدين» فى دمشق إلى مهاجمة الأردن فعاد أرناط مسرعاً للدفاع عن إمارته بعد أن نهب قافلة إسلامية وأسر الكثير ممن كانوا فيها.

غضب المسلمون لتجرؤ «أرناط» على مقدساتهم، وأرسل «صلاح الدين» الى ملك بيت المقدس يلومه ويعنفه على ما حدث، ويطلب أن يعيد ما سلبه «أرناط» والذى رفض وساطة «بلدوين».. وتصادف أن ثار البحر عند دمياط على عدة سفن صليبية تحمل ٢٥٠٠ من حجاج بيت المقدس فغرق كثير منهم ونزل الباقون وعددهم ١١٩٠ على شواطئ دمياط فأخذهم «صلاح الدين» أسرى وأعلن أنه لن يعيدهم إلا بعد عودة أسرى القافلة المسلمة ولكن «أرناط» رفض فاحتفظ «صلاح الدين» بالحجاج المسيحيين كأسرى.

اكتمال الوحدة الإسلامية

فى يونيو ١١٨٠ توفى «سيف الدين غازى» حاكم الموصل فقام الأمراء بمنع أبناء «سيف الدين» من تولى الأمر لصغر سنهم واستدعوا «عز الدين مسعود شقيق سيف الدين» لتولى حكم الموصل.. وفى ديسمبر ١١٨١ مات «الملك الصالح إسماعيل» وهو فى التاسعة عشرة من عمره، وكان قد أوصى بأن يخلفه ابن عمه «عز الدين مسعود» حتى تصبح حلب والموصل جبهة واحدة لمواجهة «صلاح الدين».. وأصبح «مسعود ملكاً على الموصل وحلب.. وأعطى حلب لأخيه «عماد الدين» حاكم سنجار مما حطم تماماً وحدة الدولة الزنكية.. وتصادف أن الهدنة مع حلب كانت تنتهى بعد أربعة أشهر فقط من تولى «عز الدين مسعود».

وعلم «صلاح الدين» أن أمراء حلب قد دخلوا فى مفاوضات تحالف مع الصليبيين وراسلوا الباطنية للتحالف ضده.. وفعل أمراء الموصل الشئ نفسه.. وعلى الفور قرر «صلاح الدين الأيوبى» توحيد القوى الإسلامية فى شمال الشام والعراق قبل أن يبدأ جهاده الكبير ضد الصليبيين.. وأقيم حفل وداع كبير من أهل مصر للسلطان ألقيت فيه أشعار كثيرة من بينها بيت قاله أحد المربين لأولاده حيث قال:

تمتع من شميم عرار نجد

ما بعد العشية من عـــرار

فانقبض السلطان.. وفيما بعد تحققت نبوءة هذا المربى، حيث لم يعد «صلاح الدين» إلى مصر بعد هذه المرة مع طولها.

اتجه «صلاح الدين» على رأس جيشه إلى حل وبعد حصار دام ثلاثة أيام تركها إلى الموصل، وفى الطريق استولى على الرها وحران والرقة وسروج ونصيبين وذلك فى سبتمبر وأكتوبر ١١٨٢، وبدأ فى حصار الموصل أوائل سبتمبر، ولكن تحصيناتها الكبيرة وقفت عائقاً أمامه مما جعل موقفه شديد الحرج أولاً لأنه يهاجم الزنكيين أصحاب الفضل عليه.. والأهم أنهم مسلمون بما لا يتفق مع دعاوى الجهاد التى يرفعها.. فأرسل إلى الخليفة العباسى فى بغداد يشكو حاكم الموصل بأنه تحالف مع الصليبيين ضده.

وسارع حاكم الموصل بالاستعانة بالأمراء المسلمين المجاورين مثل «قزل أرسلان» حاكم أذربيجان وشاه أرمن حاكم أخلاط.. وقام الخليفة العباسى بتفويض الشيخ «صدر الدين» للوساطة بين «صلاح الدين» والزنكيين فترك «صلاح الدين» الموصل واستولى على سنجار وهاجم الجيوش التى جاءت لنجدة حاكم الموصل.

وفى تلك الأثناء توفى «فرخشاه» نائب «صلاح الدين» على دمشق فاستغل «بلدوين الرابع» الفرصة وخرج على رأس

جيشه قاصدا دمشق وفى الطريق أغار على بصرى فى إقليم حوران واتسمت هجماتهم بالعنف والوحشية.. وانتقلوا بعد ذلك إلى السواد على الضفة الشرقية لبحيرة طبرية واستردوا قلعة حبيس جلدك التى استولى عليها «صلاح الدين» قبل عدة أشهر.. وفى ديسمبر ١١٨٢ عقد الصليبيون مجلساً للحرب فى قيسارية وقرروا الإغارة على إقليم حوران فخرج «ريموند الثالث» على رأس جيوشهم صوب طبرية ووصلوا إلى بصرى وعادوا محملين بالغنائم.. وبعد ١٥ يوماً خرجوا فى غارة أخرى بقيادة «بلدوين الرابع» ووصلوا إلى داريا على بعد ٦ كيلو مترات من دمشق وكان «صلاح الدين» يحاصر نصيبين فى الجزيرة الفراتية ورفض العودة لمطاردة الصليبيين.. وواصل السيطرة على المدن والقلاع حيث استولى على حصن آمد وهى مدينة شهيرة بأسوارها القوية وأبوابها الحديدية ومكتبتها الجامعة.. وقبل أن ينتهى من تسليم آمد الى حاكم حصن كيفا، علم أن «عماد الدين» حاكم حلب قد تحالف مع الفرنج وبدأ فى احراق المدن التابعة للسلطان.. فعبر الفرات بجيشه واستولى على عينتاب فى مايو ١١٨٣ ثم اتجه إلى حلب وحاصرها فأرتبك «عماد الدين زنكى الثانى» حاكم المدينة وعرض على «صلاح الدين» حلب مقابل إعادته إلى ولاية سنجار فوافق «صلاح الدين» وأعطاه فوق سنجار كلا من نصيبين والرقة وسروج ودخل حلب فى ١٢ يونيو ١١٨٣ وسرعان ما استسلمت حامية حارم التابعة

لحلب فى ٢٤ يونيه ١١٨٣ ليكون فى ذلك ضربة قوية ضد الصليبيين حيث أصبح أقوى حكام الشرق.. كما أصاب الرعب إمارة انطاكية، لأنها أصبحت فى مرمى أسلحة «صلاح الدين» بعد استيلائه على حلب.. وعمل «بوهيموند» أمير أنطاكية على استرضاء «صلاح الدين» فأرسل إليه بعض أسارى المسلمين.. وفى الوقت نفسه ذهب هو و«ريموند الثالث» إلى «بلدوين الرابع» فى بيت المقدس لتدارس الموقف.. وطلب «بلدوين» هدنة مع «صلاح الدين» بقصد إعطاء أنطاكية فرصة لتحصين دفاعاتها.. عاد «صلاح الدين» إلى دمشق فى أغسطس ١١٨٣ وعين ابنه الظافر نائبا له فى حلب.

وقد نجح «صلاح الدين» فى عمل شبكة قوية من البريد الجوى عن طريق الحمام الزاجل حيث أقام الأبراج الكبيرة والقوية وأقام عليها الحراسة اليقظة مما جعله على دراية بكل ما يدور فى مملكته الكبيرة، كما أمكنه إرسال تعليماته إلى أى مكان وفى أى وقت يريد.

وفى هذه الأثناء فتك الجزام بالملك «بلدوين الرابع» فعجز عن الحركة من فراشه.. فأصدر قرارا بتفويض صهره «جاى لوز جنان» فى الوصاية على المملكة.. وكان «لوز جنان» هذا بليدا وضعيف الشخصية ولكنه قاد الجيش الصليبى حتى وصل عند الفولة وهى قرية على مقربة من عين جالوت وظل الجيشان وجها لوجه عدة أيام فى أكتوبر ١١٨٣ لم يكن فيها

إلا بعض الهجمات الصغيرة من «صلاح الدين» على أطراف الجيش الصليبى.. وعندما فشلت كل محاولات استدراج الصليبيين إلى المعركة لجأ «صلاح الدين» إلى جبل الطور ليجبرهم على التحرك ولكنهم انسحبوا فعاد «صلاح الدين» إلى دمشق فى منتصف أكتوبر ١١٨٣ بعد أن قتل وأسر كثيراً من الصليبيين وكانت هذه المعركة «بروفة حقيقية» لموقعة حطين بعد أربع سنوات.

أرناط يواصل جنونه

فى سنة ١١٨٢ أقدم أرناط حاكم الكرك على مشروع خطير استهدف سيطرة الصليبيين على البحر الأحمر وطعن الإسلام بغزو الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة.

وبدأ أرناط بالاستيلاء على آيلة على خليج العقبة، وصنع عدة سفن، ثم حملها مفككة على ظهور الجمال حتى تم تركيبها فى خليج العقبة.. وقام بمهاجمة بعض الموانى الصغيرة على البحر الأحمر مثل عيذاب التى تقع فى مواجهة جدة.. ونهب أرناط بعض السفن التجارية وأحرق ١٦ مركباً وهاجم قافلة من الحجاج فيما بين قوص وعيذاب وقتل جميع من فيها.. وانتقل أرناط إلى شاطئ الحجاز فغضب كل المسلمين.. وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن أرناط كان على مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة.. وأمام هذا الاجتراء طلب «صلاح الدين» من أخيه العادل تجهيز أسطول كبير تحرك تحت قيادة «حسام الدين لؤلؤ» الذى حاصر آيلة واستطاع تدمير وإحراق مراكب الفرنج

وتعقب بقيتها عند عيذاب ثم شواطىء الحجاز.. وكان الجزء الأكبر من تلك السفن موجودا على شاطىء الحوراء عندما داهمها «حسام الدين» ودمرها بعد أن أطلق تجار المسلمين الأسرى.. وترك الصليبيون المراكب وهربوا إلى الجبال فطاردهم «حسام الدين» حتى أسرهم جميعاً فى فبراير ١١٨٣، وقد أمر «صلاح الدين» بإعدام هؤلاء الأسرى ليكونوا عبرة لكل من يفكر فى الاعتداء على «حرم الله وحرم الرسول».. واستطاع أرناط أن يهرب بصعوبة وأقسم «صلاح الدين» ألا يغفر له فعلته.. ولذلك سارع فى سبتمبر ١١٨٣ لحصار الكرك ولحق به أخوه العادل بجيش من مصر، وتصادف اجتماع عدد كبير من أمراء الإفرنج فى حصن الكرك احتفالا بزواج الأميرة «إيزابيلا» أخت «بلدوين الرابع» الذى سارع رغم مرضه الشديد لنجدة الكرك فعاد «صلاح الدين» إلى دمشق فى اوائل ديسمبر ١١٨٣ استعدادا لهجمة أخرى على الكرك والتى تمت فى صيف ١١٨٤، وشاركه فى الحصار ابن شقيقه «المظفر تقى الدين عمر» الذى حل محل الملك العادل فى حكم مصر، كما شارك فى حصار الكرك هذه المرة «نورالدين بن قرأ أرسلان» حاكم كيفا وأمد فى ديار بكر.. وبعد أن اشتد الحصار واقترب الحصن من الاستسلام سارعت مملكة بيت المقدس لإنقاذ الحصن فعاد «صلاح الدين» مرة أخرى إلى دمشق، ولكنه أغار فى طريق عودته على نابلس وسبسطية وجنين التى أحرق قلعتها وأعطى الأمان لأهل سبسطية وأسقفها إكراما لقبر نبى الله زكريا عليه السلام.

مناوشات قبل حطين

راح «صلاح الدين» يعمل على تنظيم دولته من الداخل فعمل على إحلال أبنائه محل إخوته وأبناء عمومته فى تولى الأجزاء الرئيسية للدولة.. فنقل أخاه العادل من حكم مصر إلى حلب وأحل محله فى مصر «المظفر تقى الدين عمر» «ابن أخيه» مع «الأفضل على بن صلاح الدين» ودب الخلاف بينهما فاستدعى «صلاح الدين» ابن أخيه فى صيف سنة ١١٨٦ وأحل محله ابنه الثانى «العزيز عثمان» ورفض «تقى الدين عمر» تنفيذ الأمر فاحتال عليه «صلاح الدين» حتى أحضره إلى الشام ومنعه من العودة إلى مصر وأعطاه عدة إقطاعات متفرقة فى الشام مثل حماة ومنبج.. وبعد ذلك خلع «صلاح الدين» شقيقه العادل من حلب وأعطاها لابنه الملك «الظاهر غياث الدين غازى» وولى «العادل» بعد ذلك فى سنة ١١٩١ إقطاعات ثانوية فى بلاد النهرين تشمل الرها وحران وميافارقين.. وفى المقابل خلع «بلدوين الرابع» صهره «جاى لوزجنان» عن الوصاية على المملكة وقام بتعيين «بلدوين الخامس» «ابن اخته» شريكا له فى حكم المملكة ووريثا له.. كما سعى «بلدوين الرابع» لتطليق أخته «سيبيل» من «لوزجنان» الذى اعتصم فى إمارته - يافا وعسقلان - ليعلن ثورته على الملك فزحف «بلدوين الرابع» على عسقلان فوجد أبوابها موصدة فاتجه

إلى يافا ليستولى عليها ويعلن عزل «جاى لوز جنان» وبعد ذلك قرر اختيار «ريموند الثالث» أمير طرابلس وصياً على المملكة وذلك فى مارس ١١٨٥ وبعد رحيل «بلدوين الرابع» تم إعلان «بلدوين الخامس» ملكاً على بيت المقدس تحت وصاية «ريموند الثالث».. وتعرضت بلاد الشام لقحط شديد عام ١١٨٥ فبادر «ريموند» إلى عقد هدنة مع «صلاح الدين» لمدة أربع سنوات «١١٨٥ ـ ١١٨٩».

الموصل فى حوزة السلطان

استغل «صلاح الدين» سنوات الهدنة لتركيز جهده ضد الموصل فهاجمها فى أبريل ١١٨٥ وعرض عليه بعض المهندسين تحويل نهر دجلة عن المدينة حتى تستسلم بسرعة بعد قطع المياه عنها ولكن تعذر تنفيذ هذه الفكرة.. واشتدت حرارة الجو مما اضطره إلى فك الحصار.. وسمع بموت حاكم أخلاط دون أن يترك وريثا فذهب إليها فى صيف ١١٨٥ لينازع عليها حاكم أذربيجان.. ولكنه تركها ليستولى فى طريق عودته على ميافارقين.. وبعدها مرض «صلاح الدين» مرضا شديدا لدرجة جعلت من حوله يتوقعون رحيله.. فآوى إلى حران ولم يستطع العودة إلى الشام إلا فى يونيه ١١٨٦ واستغل أمراء الموصل مرض «صلاح الدين» فعرضوا عليه الصلح حيث قبل حاكم الموصل «عزالدين مسعود» أن يكون تابعاً لـ«صلاح الدين» وأن يتم الدعاء له على المنابر وأن تسك العملة باسمه لتنضم بذلك آخر المعاقل

القـوية إلى مملكة «صـلاح الدين» وبعـد شـفـاء الملك وصلح الموصل اتجه إلى حمص حيث أمر بقتل أميرها «ناصر الدين بن أسـد الدين شـيركـوه» جـزاء غدره بعـد أن اتفق مع أمـراء دمـشق على الطاعـة لهم بعـد مـوت السلطان وكـان «ناصـر الدين» حـاكماً لحمص والرجبة وهو ابن عم «صـلاح الدين» أسـدالدين شـيركوه، وكـان من الواجب ألا ينسيه غضـبـه من خطأ «نـاصـر الـدين» فـضل عـمـه وأسـتـاذه عليـه.. المهم بعـد مـقـتل «ناصــر الدين» أتـى «صــلاح الديـن» بابنـه الصـغـيـر «شـيركوه» وهو فى الثانيـة عشـرة من عـمـره وسـأله أين بلغت فى القـرآن فـرد الصـبـى بطلاقـة إلى قـولـه تعـالـى: «إن الذين يأكلون أمــوال اليــتــامى ظلمــا إنمـا يأكلـون فى بطونهم ناراً وسـيـصلون سـعيـراً» ففـهم «صـلاح الدين» وأعـجب من ذكـاء الصبى وأقره على ما كان لأبيه من أملاك.

أمـا على الجانب الصليبى فقد مـات الملك الصـغيـر «بلدوين الخـامس» بعد أشهر قليلة من إعلانـه ملكاً ليبدأ صـراع حـاد بين أمراء المملكة للفوز بالعرش وانقسـموا قسـمين الأول يؤيد «جـاى لـوز جنان» والأخـر يؤيد «ريـمـوند الثـالث» وسـرعـان مـا سـيطرت الأمـيـرة «سـيـبـيل» وزوجـهـا «لـوز جنان» علـى بيت المقدس بمسـاعدة «هرقل بطرق بيت المقـدس» و«أرنـاط» حـاكم الكرك.. أمــا «ريـمـوند» فـقـد سـارع إلـى نابلس وجـمـع حـوله مـجمـوعة من أمـراء الصليبيين الكارهين لـ«لوز جنان» فسـارع «بطرق بيت المقـدس» بتـتـويـج «سـيـبـيل» وزوجـهـا «لـوز جنـان»

فـانفض الأمـراء عن «ريمـوند» وعـادوا إلى «لـوز جنان» بعـد حسم الصراع.

استـمر «ريموند» حـاكم طرابلس و«بوهيموند» أمير أنطاكية على موقفهما العدائى من «لوز جنان».. وعمل «ريمـوند» على التقرب من «صلاح الدين» وطلب مسـاعدته فـوعده السلطان بالمسـاعـدة طمـعـاً فى زيادة حـدة الشـقـاق فى المعـسكر الصليبى.. ذلك الشـقـاق الذى سـيـصب حـتـمـاً فى صـالح المعسكر الإسلامى بقيادة «صلاح الدين».

حطين بوابة القدس

رغم وجود الهدنة بين «صلاح الدين» والصليبيين فإن «أرناط» الملقب بـ «الفارس اللص» انقض على قافلة للمسلمين فى أواخر ١١٨٦ وهى فى طريقها من القاهرة إلى دمشق وسطا على كل ما فيها ثم أخذ رجالها وحاميتها كأسرى ووضعهم فى حصن الكرك.. ولم يشأ «صلاح الدين» أن يندفع إلى الحرب مرة واحدة فأرسل إلى «أرناط» يعنفه ويطلب منه رد الأسرى والأموال فسخر «أرناط» وقال: «قولوا لمحمد يخلصكم».. فتّحلَّى «صلاح الدين» بالحلم وطلب من «لوز جنان» ملك بيت المقدس التدخل لدى تابعه «أرناط» الذى واصل العناد.. مما أغضب «صلاح الدين» وأقسم أن ينتقم من «أرناط» بل (نذر دمه).. وأخذ فى تعبئة القوى الإسلامية استعدادا للمعركة الكبرى.. وغادر دمشق فى منتصف مارس ١١٨٧ على رأس جيش كبير وسار حتى وصل إلى الكرك وسارع بتدمير كل دفاعات «أرناط» الذى بات محصورا فى قلعة الكرك.. وعسكر «صلاح الدين» فى بانياس وأرسل قوة استطلاعية لمهاجمة عكا وعند صفورية دارت معركة مع الصليبيين ليسقط معظمهم بين قتيل وأسير.. وبعد هذه المعركة أدرك الصليبيون الخطر القادم عليهم فتناسوا الخلافات القائمة بينهم وتحالف «ريموند» و«لوزجنان» وتجمع الجيش الصليبى فى صفورية قرب عكا ومعه صليب الصلبوت

(الصليب الأعظم) والذى يقال إن السيد المسيح قد صلب عليه.. وتحرك «صلاح الدين» ليقتحم مدينة طبرية ويحرقها ما عدا قلعتها الحصينة التى احتمت بها «أشيفا» أميرة طرابلس وزوجة «ريموند الثالث».

واضطر الصليبيون إلى ترك مواقعهم فى صفورية والتقدم نحو طبرية عبر طريق وعر طوله ١٦ ميلا ووسط حرارة جو الصيف التى تحالفت مع الدروع الثقيلة التى ارتداها فرسان الصليبيين لتجعل من حركتهم نوعا من المعاناة والعذاب الذى لا يطاق وكان «ريموند» قد طالب بعدم التحرك من صفورية فاتهمه «أرناط» بالخيانة والجبن.. بينما تقدم «صلاح الدين» ليرابط عند قرية «حطين» وهى قرية غنية المرعى، وفيرة الماء وبها قبر النبى شعيب عليه السلام... وفى رحلة الجيش الصليبى من صفورية إلى طبرية تعرض لهجمات صاعقة من كمائن «صلاح الدين» وفى منتصف الطريق أدرك «لوزجنان» أن جيشه قد أدركه التعب والعطش فقرر التوقف عند منطقة تسمى (لوربية) وهى منطقة جرداء عاش فيها الصليبيون ليلة من الرعب بعد أن هاجمهم جيش «صلاح الدين» من كل جانب مما جعل معنوياتهم على حافة الانهيار.. بينما ارتفعت معنويات جيش المسلمين وأصبح الجميع على ثقة من النصر المبين.

وفى يوم الثالث من يوليو ١١٨٧ وصل الجيش الصليبى إلى سفح جبل طبرية المشرف على سهل حطين، وهى قمة ترتفع

عن سطح البحر أكثر من ٣٠٠ متر ولها قمتان مما جعل العرب يطلقون عليها (قرون حطين) وكان العطش قد بدأ يفتك بالجنود الصليبيين بعد أن حال «صلاح الدين» دون وصولهم إلى بحيرة طبرية بمائها الرقراق.. وبات الصليبيون على قمة الهضبة العالية فأشعل جيش «صلاح الدين» النار فى الأعشاب والأشواك التى تكسو الهضبة وكانت الريح فى اتجاه الجيش الصليبى الذى أصبح يعانى من العطش والدخان ولفح النار وانتظار المعركة.. وعندما أشرقت شمس يوم ٤ يوليه ١١٨٧ اكتشف الصليبيون أن «صلاح الدين» قد استغل ظلام الليل ليحيط بهم من كل جانب وبدأت المعركة ليحارب فرسان الصليبيين معركة اليائس فاندفعوا فى اتجاه فرسان المسلمين الذين تصدوا لهم ثم أوقعوهم فى كمين خطير قضى على أغلبهم.. وانهار الجيش الصليبى وهرب «ريموند الثالث» مدعيا أنه مريض وتركه «صلاح الدين» يهرب ليعمق الخلافات والانقسامات داخل الجيش الصليبى.. وتراجع «لوز جنان» ومعه الأساقفة وبعض الفرسان إلى أعلى الجبل فى اتجاه قرون حطين ليسقط أسقف عكا قتيلا ويقع من بين يديه صليب الصلبوت ليأخذه المسلمون.. وقاد «صلاح الدين» الهجوم الأخير بنفسه حتى تم قتل وأسر غالبية الصليبيين ولم يبق إلا الملك «لوزجنان» وحوله ١٥٠ فارسا فقط فتم القبض عليهم.. ويقول «الملك الفاضل ابن صلاح الدين»: (عندما سقطت خيمة ملك بيت المقدس نزل السلطان عن جواده.. وسجد لله شكرا وبكى من الفرحة.. وقد كثر الأسرى والقتلى

من الصليبيين فمن يرى الأسرى لا يظن أن فيهم قتيلاً ومن يرى القتلى لا يظن أن فيهم أسيراً واحداً). وتم أخذ كبار الأسرى إلى خيمة «صلاح الدين» فأجلس الملك «لوزجنان» إلى جانبه وقدم إليه الماء المثلج فشرب وأعطى ما تبقى لـ «أرناط» فغضب «صلاح الدين» وصاح: «إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذنى فيناله أمانى».. وقد بادر «صلاح الدين» بهذا القول لأن من عادة العرب إذا شرب الأسير ممن أسره كان ذلك أمانا له.. والتفت «صلاح الدين» إلى «أرناط» وراح يعدد له خياناته وغدره ثم أمسك السيف وأطاح برأسه وكان ذلك (وفاء نذره).. خاف «لوزجنان» وظن أنه مقتول فهدأ «صلاح الدين» من روعه وقال له:(لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك.. وأما هذا فإنه تجاوز حده فجرى عليه ما جرى) وبعد ذلك أرسل «صلاح الدين» الأسرى إلي دمشق ليتم حبس كبارهم وبيعت البقية فى سوق العبيد ومن كثرتهم كان الأسير يباع بثلاثة دنانير بل إن بعض الأسرى كانوا يباعون «شروه» فالرجل وزوجته وأبناؤه الثلاثة وبنتاه يباعون بثمانين ديناراً (كما قال المؤرخ «أبو شامة» فى كتابه الروضتين).

سماحة الإسلام تحتضن القدس وتأبى الانتقام

كانت حطين أكبر من نصر لـ «صلاح الدين» وأقسى من هزيمة للصليبيين بعد أن تم سحق جيشهم مما جعل «صلاح الدين» يستثمر هذا النصر فى فتح البلاد والمدن الصليبية واحدة بعد الأخرى بشكل سريع ومتواصل، حيث قام بتقسيم جيشه إلى جيوش صغيرة سارت شرقاً وغرباً وشمالاً فى وقت واحد لتكتسح كل معاقل الاحتلال فبعد يوم من حطين استولى على قلعة طبرية وأطلق سراح زوجة «ريموند» وأرسلها إلى زوجها.. ووصل إلى أبواب عكا يوم ٨ يوليو سنة ١١٨٧ فأرسل له أميرها «جوسلين الثالث» مفاتيح المدينة مقابل إعطاء أهلها الأمان فدخلها «صلاح الدين» يوم ١٠ يوليو وأطلق سراح أكثر من ٤ آلاف أسير مسلم كانوا فيها وولى ابنه «الأفضل» عليها.. وتمثل عكا أهمية كبيرة لحرمان الصليبيين من قواعدهم البحرية التى تربطهم بأوروبا فتزداد قسوة الحصار عليهم داخل بلاد الشام.. وبعد عكا توالت الفتوحات فى نابلس وحيفا وقيسارية والناصرة وصيدا وصفوريا ومعليا والشقيف والفولة والغور وغيرها من الحصون.. كما استولت جيوش «صلاح الدين» على يافا وسبسطية وقلعة تبنين وصرفند.

وفى نهاية يوليو حاصر بيروت لمدة سبعة أيام حتى استسلمت يوم ٦ أغسطس واستولى بعدها على جبيل وفى

كل المدن والقلاع التى استولى عليها «صلاح الدين» ترك من فيها من الصليبيين أحراراً وترك لهم حرية البقاء أو الخروج فذهب معظمهم إلى مدينة صور والتى تركها بعد أن تجمع فيها معظم الصليبيين.. وهذا خطأ استراتيجى سيكون له تبعاته فيما بعد.. وواصل الزحف الأيوبى ليستولى على غزة والنطرون وبيت جبرين وحاصر عسقلان والتى تمثل قاعدة صليبية قوية تهدد مصر وتقطع المواصلات بين مصر والشام واستعان «صلاح الدين» بالملك الأسير «لوز جنان» لإقناع أهل المدينة بالتسليم فرفضوا فشدد عليهم الحصار فوافقوا على التسليم مع أخذ الأمان.. واستقبل «صلاح الدين» وفداً من بيت المقدس وعرض عليهم تسليم المدينة بالشروط التى استسلمت على أساسها كل المدن الأخرى فرفضوا.. فأقسم أن يفتحها بحد السيف.. ووصل «صلاح الدين» إلى أسوار القدس فى ليلة النصف من شهر رجب ٥٨٣هـ، وراح يطوف بأسوار المدينة لمدة خمسة أيام ليعرف مواطن الضعف فيها واستقر الرأى على تركيز الهجوم فى الجهة الشمالية.

وخلت المدينة من قواد الفرنج إلا «باليان» حاكم الرملة الذى تم أسره يوم حطين واستأذن «صلاح الدين» أن يذهب إلى القدس ليأخذ أسرته ويرحل وأقسم ألا ينكث بعهده.. ولكن ما إن وصل إلى القدس حتى تولى قيادة الجيش الصليبى فيها وفى يوم ٢٠ سبتمبر ١١٨٧ بدأ الهجوم من عند باب عمرو فى الجانب الشمالى ووصل الجيش إلى سور

المدينـة وتم نقبـه.. وأثناء الهـجـوم زادت وتيـرة الخـلاف بين المسيحيين فيها «أرثوذكس وكاثوليك» وأعلن الأرثوذكس أنهم يفضلون الحكم الإسلامى على سيطرة الكاثوليك الغربيين.. وأمام شدة الهجوم تأكد «باليان» من استحالة المقاومة فأرسل إلى «صـلاح الدين» يطلب التسليم والأمان فسمح لهم أن يرحلوا عن المدينة خلال أربعين يوماً مقابل الفدية على أن يدفع الرجل عشرة دنانير والمرأة خمسة والولد دينارين ومن لم يستطع فهو أسير.. وسمح «صلاح الدين» للمسيحيين العرب أن يقيموا بالمدينة بلا أى فدية.. كما وافق «صلاح الدين» على أن يدفع «باليان» ٣٠ ألف دينار فداء لسبعة آلاف من الصليبيين.. وفى يوم الجمعة ١٢ أكتوبر دخل «صلاح الدين» بيت المقدس وشاءت الأقدار أن يكون اليوم هو السابع والعشرين من رجب ذكرى الإسراء والمعراج حين أسرى بالنبى محمد -صلى الله عليه وسلم- من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.. ومن غرائب فتح القدس أن الناس رأت «هرقل بطرق بيت المقدس» يدفع لنفسه الدنانير العشرة ويغادر المدينة حاملاً ما استطاع من الذهب والفضة والتحف على عربات تسير خلفه دون أن يبالى بفقراء الصليبيين الذين لم يجدوا ثمن فدائهم.. وقد رفض «صلاح الدين» التعرض لهذا البطرق وقال: «لا أغدر به».. كما نادى بالتزام روح التسامح تجاه المسيحيين وقد شهد المؤرخون المسيحيون بكرم أخلاق «صلاح الدين» وسماحته والذى أمر بإطلاق

سراح اليتامى والأرامل والشيوخ والعجزة من الصليبيين دون فداء بل منحهم مساعدات مالية ودواب يركبون عليها من ماله الخاص.. مما دفع المؤرخ «ستانلى لين» للقول: «لقد أعطى السلطان المسلم الراهب المسيحى درسا فى معنى الإحسان» وهكذا يسجل التاريخ سماحة وأخلاق «صلاح الدين» عندما استعاد القدس مقابل بشاعة وعنصرية الصليبيين عندما احتلوها سنة ١٠٩٩ حيث ذبحوا كل ما صادفوه فيها من المسلمين وقد كتب المؤرخ المسيحى «بن العيرى»: «ولبث الفرنج فى البلد أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين إلى أن قتلوا ما يزيد على سبعين ألفاً» وكتب آخر مفاخراً بأن «جنودنا وخيولنا كانوا يخوضون حتى سيقانهم فى دماء المسلمين».

وبعد أن دفع الصليبيون الفدية أمر «صلاح الدين» بتقسيمهم إلى ثلاث مجموعات وأرسلهم تحت حراسة شديدة إلى طرابلس وصور.. والغريب أن هؤلاء المشردين عندما دخلوا فى حدود إمارة طرابلس اعتدى عليهم صليبيو الإمارة فاتجهوا إلى مدينة طرابلس فأغلق أهلها الأبواب فى وجوه إخوانهم الصليبيين واعتدوا عليهم.. وهكذا كان «صلاح الدين» أكثر رحمة وتسامحاً من الصليبيين فى تعاملهم مع الصليبيين الذين اضطروا للذهاب إلى أنطاكية.

بعد فتح القدس راح «صلاح الدين» ينظم أمورها ويصلح ما تهدم من المبانى وطهر المسجد الأقصى وأزال الصليب الكبير

ثم أمر بصناعة منبر للجامع فأخبروه أن «نور الدين محمود زنكى» قد صنع منبراً للمسجد موجودا بحلب فأرسل من أتى به.. ودخل «صلاح الدين» المسجد الأقصى يوم الجمعة «٤ شعبان- ١٩ أكتوبر» ليصلى ويشكر الله على نصره وأمره بعمارة المسجد وتوسعته وتدقيق نقوشه.. وسمح للمسيحيين الأرثوذكس واليعاقبة بالعيش فى المدينة.. كما فتحت كنيسة القيامة لاستقبال الحجاج والزوار المسيحيين.. وراح يبنى المدارس وأعاد للمدينة رونقها وبهجتها الأولى.

فتح شمال الشام

لم يكد «صلاح الدين» ينتهى من فتح فلسطين حتى راح يفكر فى كيفية إخضاع مَنْ بقى من الصليبيين على شاطئ البحر مثل صور وطرابلس وانطاكية.. فاستطاع الاستيلاء على قلعة هونين بعد أن استولى على حصن تبنين.. وبعد حصار طويل استطاع الاستيلاء على صفد أواخر عام ١١٨٨ وكوكب أوائل عام ١١٨٩ كما استولى على بانياس أقصى شمال إمارة طرابلس واستولى على جبلة فى إمارة أنطاكية فى يوليو ١١٨٨ واستولى على حصن بكسرائيل على طريق حماة.. واتجه إلى اللاذقية وهى أكبر موانئ إمارة أنطاكية فاستولى عليها فى ٢٣ يوليو سنة ١١٨٨، ومنها اتجه «صلاح الدين» ومعه ابنه «الظاهر» حاكم حلب لمهاجمة حصن صهيون وهو حصن منيع وبعد مقاومة شرسة استلم الحصن فى نهاية شهر يوليه ١١٨٨ وبعد ذلك استولى على القلاع التابعة للحصن ثم استولى على حصون بلاطنس والعيذون والجماهرتين ثم استولى على قلعة بكاس فى ٩ أغسطس.. وعلى قلعة الشغر فى ١٢ أغسطس ١١٨٨ ثم قلعة سرمانية وقلعة برزية فى نهاية شهر أغسطس.. وبذلك استولى على غالبية القلاع وهى المخافر الأمامية لمدينة أنطاكية التى لم يبق لها إلا ثلاث قلاع حصينة هى القصير- بفراس- ورابساك.. وكان «صلاح الدين» قد استطاع تجنيد الأميرة

«سيبيل» زوجة «بوهيموند الثالث» أمير أنطاكية لتكون عيناً له على الصليبيين فكشفت له الكثير من عوراتهم ومواطن الضعف فيهم، وفى المقابل كان «صلاح الدين» يغدق عليها الهدايا الثمينة.

وقد اتصفت فتوحات «صلاح الدين» بعد حطين بالاعتدال والبعد عن التطرف والعنف مع أعدائه فعامل الأسرى معاملة طيبة ومنح كثيراً من أهالى المدن الصليبية التى فتحها الحرية وسمح لهم بالنزوح إلى صور وغيرها.. كما كان حريصاً على الرفق بالنساء والأطفال والشيوخ من الصليبيين.. وقد أدى تمسك «صلاح الدين» بروح الإسلام وخلقه أن وصفه المؤرخون والكتاب الأوروبيون بأنه «النموذج الأمثل للفروسية» وفى ظل كل هذه الفتوحات كان «صلاح الدين» يعمل على تحصين القلاع القوية التى فتحها وهدم القلاع الضعيفة التى قد يستفيد منها الصليبيون إذا ما فكروا فى حملة جديدة.. وبعد أن استولى على جنوب أنطاكية انتقل إلى شمالها ليهاجم حصن وربساك وبعد مقاومة شرسة استسلم الحصن فى سبتمبر سنة ١١٨٨ وفى أواخر سبتمبر استولى على حصن بفراس.. وهكذا أصبحت إمارتا أنطاكية وطرابلس بلا أجنحة ولم يبق منهما إلا مدينتا أنطاكية وطرابلس.. وكان جيش «صلاح الدين» قد بلغ أقصى درجات الإجهاد حيث لم يسترح الجنود منذ حطين ولذلك سارع بالموافقة على اقتراح «بوهيموند» أمير أنطاكية بعقد

هدنة لمدة ثمانية أشهر مع أنطاكية فقط.. وفى تلك الأثناء كان جزء من جيش «صلاح الدين» مازال محاصراً لحصن الكرك حتى نفدت ذخائر ومؤن الفرنج فأكلوا دوابهم وأخيراً استسلموا فى نهاية ١١٨٨ كما استسلم حصن الشوبك بعد ذلك بعدة أشهر.. وبذلك لم يبق للصليبيين فى فلسطين إلا حصن الشقيف.. وقد احتمى به «رينو» حاكم صيدا عقب استيلاء «صلاح الدين» على المدينة وعندما حاصر الجيش الأيوبى ذلك الحصن بادر «رينو» والذى كان يتكلم العربية بالحضور بين يدى «صلاح الدين» طالبا الاستسلام بدون شروط إلا توفير مكان يسكنه فى دمشق وهكذا لم يبق من مملكة بيت المقدس إلا مدينة صور.. ولم يكن «صلاح الدين» موفقاً فى قراره بعدم الاستيلاء على صور بعد فتح عكا خاصة أنها كانت تابعة للأمير «رينو» حاكم صيدا والذى كان مستعداً لتسليمها حيث إن ترك صور جعل منها معقلاً للصليبيين خاصة بعد أن جاءها الأمير «كونراد» وجاءها الكثير من المعونات عن طريق البحر ما جعل من الصعب جداً الاستيلاء عليها.

صور تتحدى صلاح الدين

مع بداية عام ١١٩١ كان الكيان الصليبى فى الشرق قد بدأ فى الانهيار الكامل أمام ضربات «صلاح الدين» القوية والمتسارعة.. وأصبح الصليبيون فى أشد الحاجة إلى زعيم يلتفون حوله بعد سقوط غالبية حصونهم وقلاعهم ومدنهم فى يد «صلاح الدين» وتحددت ملامح هذا الزعيم فى شخص «كونراد دى منتفرات» الذى عرفه العرب باسم «المركيس».. حيث عمل على إنقاذ الصليبيين الذين انهارت معنوياتهم تماماً وذلك بدفعهم إلى المقاومة والثبات فبايعه أمراء المدينة قائداً لهم على أن يتعهد بالدفاع عنهم وحماية مدينتهم.. وكان «وليم» (والد كونراد) أسيرا لدى «صلاح الدين» فحاول استغلاله كورقة ضغط على الابن لكى يسلم صور ولكنه رد بأنه يفضل أن يذبح هو وأبوه على أن يسلم أى جزء من المدينة.. فترك «صلاح الدين» صور حتى ينتهى من أمر مملكة بيت المقدس، فاستغل «كونراد» ذلك وعمل على تقوية دفاعات المدينة وإعدادها للمعركة المرتقبة علاوة على أن صور نفسها مدينة حصينة وزاد من تحصينها ذلك الخندق الذى حفره «كونراد» حول المدينة، مما جعلها جزيرة تحيطها مياه البحر من كل جانب.

بعد أن فرغ «صلاح الدين» من أمر مملكة بيت المقدس ذهب على رأس جيش كبير إلى صور ومعه كل أركان حربه

«ولداه الظاهر والأفضل وأخوه العادل وابن أخيه تقى الدين عمر» ولم يفلح كل ذلك أمام تحصينات المدينة فأسرع «صلاح الدين» باستدعاء عشر سفن من الأسطول المصرى الذى كان عندئذٍ فى مياه عكا، وفشلت هذه السفن أمام العدد الكبير من سفن الصليبيين فاضطر «صلاح الدين» إلى رفع الحصار عن صور ليكون ذلك أول فشل فى معاركه الحربية منذ حطين.

الحملة الصليبية الثالثة.. الثأر يا صلاح الدين

فى نهاية صيف ١١٨٧ أرسل «كونراد» إلى البابوية وملوك الغرب الأوروبى يطلب النجدة بعد هزائم حطين وبيت المقدس.. وقد كتب المؤرخ «ابن واصل» فى كتابه: «مفرج الكروب» أن دعاة الصليبية فى أوروبا اتخذوا أسلوباً جديداً فى الدعوة إلى الحملة الجديدة، حيث صوروا السيد المسيح عليه السلام وجعلوا معه صورة رجل عربى يضربه بعصا وجعلوا الدماء على صدر المسيح، وقالوا: هذا المسيح يضربه محمد نبى المسلمين وقد جرحه وقتله..!!» وهكذا فإن الرسوم المسيئة للرسول عليه الصلاة والسلام ليست اختراعاً دانماركياً ولكنها تضرب بجذورها فى عمق تاريخ التعصب الصليبى والمسألة ليست فى تلك الرسوم ولكن فى قدرتنا على التصدى لها فهل نستطيع أن نفعل ما فعله «صلاح الدين»؟

نجحت هذه الدعاية فى خروج الحملة الصليبية الثالثة بقيادة «فردريك بربروسا» امبراطور ألمانيا «وفيليب أغسطس» ملك فرنسا و«ريتشارد قلب الأسد» ملك إنجلترا.. فخرج «فريدريك» فى مايو ١١٨٩ على رأس جيش كبير «١٠٠ ألف محارب» وسار إلى الشام من خلال الطريق البرى عبر البلقان وآسيا الصغرى.. وكان «صلاح الدين» على علاقة ود

مع الامـــبـــراطور البــيــزنطى «إســحق الثــانى» الذى أرسل بمعلومـات مهـمـة عـن وصـول الحـملة الصليبيـة الجـديدة فى خطوة من خطوات التعـاون بين الملكين بعـد أن جعل «صــلاح الدين» الأرثوذكس مشرفين على كنيسة القيامة وجعل «إسحق الثـانى» الإشـراف والوصـاية لـ «صـلاح الدين» على الجـاليـة المسلمـة فى القسـطنطينية.. وراح «صـلاح الدين» يتـابع أخبـار تحـرك الجيش الألمانـى الضـخم الذى تسـبب فى رهـبـة كبـيـرة بين صفوف المسلمين.

وعند اقتراب الجيش الألمانى من الشـام عمل «صـلاح الدين» على تدمـيـر بعض المراكز حتـى لا يسـتـخـدمـها الصـليبـيون فى محـاربـة المسلمين فـهـدم سـور طبـرية وأسـوار صـيدا وجـبـيل ونقل أهلها إلى بيـروت، كمـا هـدم يافـا وأرسـوف وقـيـسـارية.. وفـجـأة انـزاح هـذا الخـطـر لأن الامـبــراطور «فـردريك» وكـان شـيـخـا عـجـوزا غـرق فى نهـر صـغيـر فى قليقـيـة وسـرعـان مـا تبدد جيشه الكبير.

الصليبيون يستردون عكا

انكسر الضلع الألمانى فى الحملة الصليبية الثالثة.. أما الضلعان الانجليزى والفرنسى فقد أبحر الملكان من غرب أوروبا فى صيف ١١٩٠ وكان «صلاح الدين» تحت إلحاح ورجاء الأميرة «سيبيل» قد أفرج فى يوليو ١١٨٨ عن زوجها «جاى لوز جنان» ومعه عشرة من كبار الصليبيين وقد وعد كل هؤلاء ألا يحاربوا «صلاح الدين» أبدا.. ولكنهم نزحوا فى اتجاه صور انتظارا لحملة صليبية جديدة ضد المسلمين.. وقد رفض «كونراد» فتح أبواب المدينة لملك بيت المقدس وزوجته فاستمر خارج المدينة عدة أشهر ثم قرر «لوز جنان» مهاجمة عكا.. وكان «صلاح الدين» مشغولا فى ذلك الوقت بحصار قلعة الشقيف ـ وتصور أن خبر مهاجمة عكا ليس إلا خدعة ليرحل عن الشقيف ـ وكان هذا خطأ استراتيجيا جديدا يضاف إلى خطأ ترحيل الصليبيين إلى صور.. وفجأة علم بأن الصليبيين على أبواب عكا فأرسل بعض قواته من الجليل وتبعهم هو ليقضى عليهم عند المضيق فاعترض أمراء الجيش على ملاقاتهم عند المضيق وفضلوا ملاقاتهم أمام عكا ـ ليقع خطأ استراتيجى جديد ـ وزاد الأمر سوءا تصالح «لوز جنان» و«كونراد» لمواجهة المسلمين.. وأقام «لوز جنان» معسكره فوق تل المصلين ولحق به «صلاح الدين» بعد يومين فى سبتمبر ١١٨٩ ثم وصل «كونراد» على رأس قوته من

صور.. وكان الجيش الأيوبى قد بدأ هجماته فى منتصف سبتمبر وأنزل بالصليبيين خسائر فادحة وأصبحوا محاصرين بين القوات المسلمة داخل عكا وخارجها.. ونتيجة لكثرة عدد الجثث المتخلفة عن هذه المعارك انتشرت الأوبئة بين الجنود فقرر «صلاح الدين» الابتعاد عن عكا واستغل الصليبيون هذا الخطأ الجديد وحفروا خندقا حول عكا ليقطعوا الطريق على الجيش الأيوبى واستطاعوا حصار المدينة بمن فيها من الجنود، واستمرت المعارك طوال شتاء ١١٨٩ ـ ١١٩٠ وربيع ١١٩٠ وكانت الأخبار والتعليمات تتواصل بين «صلاح الدين» ومن فى عكا عن طريق السباحين والحمام الزاجل أيضا.. وقد جاء الملك العادل فى نوفمبر ١١٨٩ على رأس جيش كبير لمساندة شقيقه «صلاح الدين».. كما جاء قائد الأسطول «حسام الدين لؤلؤ» ومعه خمسون مركبا إلى مياه عكا وكسر الأسطول الحصار وأمد أهل عكا بما كانوا يحتاجون إليه من المؤن والعتاد والكثير من الجنود أيضا.. وأمام هذا الوضع الصعب راسل «صلاح الدين» ملوك المشرق والمغرب الإسلامى ليساعدوه فى قهر الصليبيين على أبواب عكا.. فأرسل له «أبو يوسف يعقوب» ملك المغرب بأنه سيمده بأسطول يقطع على الصليبيين الإمدادات التى تأتيهم من البحر وكان ذلك فى يناير ١١٩١ وفى منتصف فبراير ١١٩١ نجح «صلاح الدين» فى تجديد حامية المدينة بأن استبدل الجنود الذين كانوا داخل عكا بجنود آخرين بعد

طول العناء والتعب ولكن هذه العملية لم تتم على الوجه الأكمل ليقع خطأ استراتيجى جديد حيث تم سحب ستين أميرا ولم يدخل مكانهم إلا عشرون فقط مما أدى فى النهاية إلى سقوط عكا.. وكانت «سيبيل» ملكة بيت المقدس وزوجة «لوز جنان» قد ماتت أمام أسوار عكا فى أكتوبر ١١٩٠ وصارت أختها «ايزابيل» الوريثة لعرش المملكة مما أفقد «لوز جنان» أى حق فى عرش المملكة اضافة إلى أنه كان مكروها من الامراء الذين سارعوا بتطليق «ايزابيل» من زوجها وتزويجها من «كونراد» الأمير القوى..!! مما أحدث انشقاقا كبيرا فى صفوف الصليبيين لم يلتئم إلا بوصول «فيليب أغسطس» ملك فرنسا على رأس الجزء الفرنسى من الحملة الصليبية الثالثة فى ابريل ١١٩١ فجمع الشمل ووحد الجهود لحرب المسلمين.. وبدأ «أغسطس» على الفور مهاجمة عكا وازدادت قوته بوصول «ريتشارد قلب الأسد» فى أواخر يونيه ١١٩١ بعد أن فتح قبرص.. وسجل التاريخ أن عكا قد صمدت طويلا أمام هذا الهجوم الكاسح وذلك بقيادة «بهاء الدين قراقوش» حاكم المدينة.. وقد حاول «صلاح الدين» التخفيف عن عكا فهاجم الصليبيين الذين ردوا الهجوم فى ٢٢ يونيه ١١٩١ ومن أروع الأحداث فى معارك عكا أن «صلاح الدين» قد أرسل سفينة كبيرة مليئة بالسلاح والذخيرة وما إن وصلت إلى أسوار عكا حتى حاصرتها أربعون سفينة من أسطول «ريتشارد» ودارت معركة رهيبة

وغير متكافئة واستطاعت سفينة «صلاح الدين» إغراق احدى سفن «ريتشارد» وأمام شراسة المعركة رفض جنود سفينة «صلاح الدين» الاستسلام حتى لا يستفيد العدو بأسلحتهم كما رفضوا الهزيمة على يد العدو فقرروا إغراق السفينة بما عليها ومن عليها ليتم استشهادهم جميعا وهم يقولون «والله لا نقتل إلا عن عز» - ومن الغريب أن مؤامرة إنجلترا وفرنسا مع صليبيى الشرق ضد عكا سنة ١١٩١ تتشابه كثيرا مع مؤامرة انجلترا وفرنسا والكيان الصهيونى ضد بورسعيد سنة ١٩٥٦ .. وبعد أن طالت معارك عكا وأصبحت غير متكافئة قرر «صلاح الدين» التفاوض مع الصليبيين والذى انتهى بإخراج حامية المدينة سالمين مع دفع فدية ٢٠٠ ألف دينار وتحرير ٢٥٠٠ أسير صليبى واعادة «صليب الصلبوت» ودخل الصليبيون عكا فى يوليه ١١٩١ بعد أن حاصروها لما يقرب من العامين.

ريتشارد.. أسد شجاع وثعلب خائن

رغم استيلاء الصليبيين على عكا فإن صراعاتهم لم تتوقف خاصة الصراع بين «لوز جنان» و«كونراد» حول عرش مملكة بيت المقدس، مما دفع «فيليب أغسطس» إلى العودة إلى فرنسا فى أغسطس ١١٩١ ليترك «ريتشارد» قائدا أوحد للحملة الصليبية الثالثة.. وما إن دخل «ريتشارد» عكا حتى نسى أو تناسى شروط الصلح وقبض على من بها من المسلمين وكانوا قرابة ثلاثة آلاف وساقهم إلى تل قريب ليغتالهم جميعا.. وهكذا يظهر الفارق بين فروسية «صلاح الدين» وسماحته الإسلامية التى جعلته يعفو ويصفح عن الصليبيين بعد انتصاراته الكثيرة فى حطين وما بعدها.. وبين ما يدعيه «ريتشارد» من فروسية أمرته بالغدر ونقض العهود وقتل الأبرياء مما جعل المسلمين يعيدون إلى الذاكرة ما فعله الصليبيون فى القدس أثناء الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٩، ورغم ما فعله «ريتشارد» فقد رفض «صلاح الدين» قتل الأسرى الذين بحوزته وكل ما فعله أن أوقف التفاوض حول بيت المقدس، كما أمر بارسال أسرى الصليبيين إلى دمشق بعد أن كان قد قرر استبدالهم مع أسرى عكا.. وقد عمل «ريتشارد» على إحياء مملكة بيت المقدس بالاستيلاء أولا على ساحل البحر من عكا إلى عسقلان وأثناء زحفه تعرض جيشه لهجمات شرسة من

جيش «صلاح الدين».. ورغم ذلك استولى «ريتشارد» على حيفا وقيسارية فى نهاية أغسطس ١١٩١ وواصل الزحف إلى أرسوف وأمام عنف المقاومة الإسلامية وصعوبة الطريق أصيب الصليبيون بخسائر كبيرة لدرجة أن «ريتشارد» نفسه أصيب بجروح ورضوض، مما جعله يفتح باب التفاوض مع «صلاح الدين» والذى تظاهر بالقبول حتى تصل قوات الدعم التى طلبها.. وفشلت مفاوضات «الملك العادل» مع «ريتشارد».. وفي معركة أرسوف استطاع «صلاح الدين» في ٧ سبتمبر ١١٩١ حصار قوات الصليبيين حتي كاد يقضى عليها ورغم ذلك فقد استطاع ريتشارد الصمود ثم الهجوم حتي استولى في النهاية علي أرسوف ويؤكد المؤرخون أن هذه المعركة كانت بداية تغير الدفة فبعد أن سيطر المسلمون من سنة ١١٧٠ إلي ١١٩١ تحولت السيطرة إلي الصليبيين ولمدة ستين عاما بعد ذلك.

وقد اهتزت هيبة «صلاح الدين» في أعين أمرائه بعد أرسوف لدرجة أنه عندما أراد تحصين عسقلان رفض الأمراء إلا بشرط أن يكون معهم في المدينة «صلاح الدين» نفسه أو بعض أولاده مما جعله يترك عسقلان ويركز جهوده للدفاع عن بيت المقدس.. وقد سارع «صلاح الدين» إلي تخريب وإحراق عسقلان حتي لا يستفيد بها الصليبيون أو يستخدموها في قطع الاتصال بين مصر والشام.. واتجه «صلاح الدين» إلي بيت المقدس وفى الطريق قام بتخريب الرملة واللد..

والغـريب أن «ريتشـارد» أخطأ هو الآخـر فبعـد انتصـاره في أرسـوف لم يسـارع بمهـاجـمـة عسـقـلان أو الذهاب إلي بيت المقـدس ولكنه أقـام فـي يافا ليـعـيـد تعمـيرها وأضـاع في ذلك قـرابة الشهـرين (سبـتمبـر - أكتـوبر ١١٩١) استطاع «صـلاح الدين» خـلالهما إعادة ترتيب صفوفه انتظارا للمعركة القادمة مع «ريتـشـارد».. وفي ذلك الوقت أرسل «كـونـراد» إلي «صـلاح الدين» يطلب الصلح وإعـادة عكا إلي المسلمين في مـقـابل أن يأخذ صيدا وبيـروت.. وقد فعل «كونراد» ذلك انتقاما لمحاباة «ريتـشـارد» لـ«لوز جنان» مما جـعله ينفـرد بصـور وقـد وافق «صـلاح الديـن» علي طلب «كـونـراد» بشـرط أن يجـاهـر بعـدائه للصليبـيين وأن يطلق سـراح أسـري المسلمين في صـور وعكا.. وقبل أن تتم هذه الصفقة علم «ريتشارد» بتفاصيلها فعمل علي عـودة «كونراد» والسـيطرة عليـه..وفي أكـتـوبر ١١٩١ تحـرك «ريتـشـارد» في اتجـاه بيت المقـدس وسـط مناوشـات مع بعض فصائل الجيش الأيوبى.. وكان «صـلاح الدين» قد أتم تحصين المدينة بإصـلاح القـلاع والحصـون وتقـوية الأسـوار وحفـر خندق حـول المدينة.. ووصل «ريتـشـارد» إلـي أسـوار القـدس في نهـاية سنة ١١٩١ فـوجـد البـرد والشـتـاء والأمـطار والأوحـال والتحصـينات القوية للمدينة مما اضطره إلي العـودة مرة أخري إلي الرملة في يناير ١١٩٢ وبدأ مد جسور التفاوض مع «صلاح الدين».. وقـام «الملك العـادل» بالمفـاوضـات التي فـشلت أمـام إصـرار «ريتـشـارد» علي عـودة بيت المقـدس إلي الصليـبـيين

والأردن واستمرار السيطرة علي عسقلان.. وأثناء المفاوضات اقترح «ريتشارد» أن يتزوج «الملك العادل» من شقيقته الأميرة «جوانا» أرملة ملك صقلية وأن يتنازل «صلاح الدين» لأخيه «العادل» عن البلاد التي استولى عليها بالشاطئ ويتنازل «ريتشارد» عن البلاد التي استولى عليها كصداق لأخته علي أن يكون حكم بيت المقدس للملكين «العادل« و«جوانا» وقد وافق «العادل» و«صلاح الدين» علي الفكرة التي فشل «ريتشارد» في أقناع «جوانا» بها.. كما رفضها رجال الدين المسيحى وحاشية «ريتشارد».. ولو سمح الكهنة بإتمام هذا الزواج لتحول إلي جسر يسير عليه المسلمون والمسيحيون إلي الآن. (وقد تجدد هذا الفشل منذ عدة سنوات فقط عندما تم إفشال مشروع زواج «دودى الفايد» المصري المسلم من الأميرة الانجليزية «ديانا» طليقة «ريتشارد» ولي العهد الإنجليزى وذلك بقتلهما في حادث سيارة في باريس).

وبعد فشل إتمام هذه الاتفاقية توجه «ريتشارد» إلي تحصين عسقلان في يناير ١١٩٢ كما حاول رأب الصدع بين «لوز جنان» و«كونراد» الذي كرر محاولته بالاتصال بـ«صلاح الدين».

وفى هذه الأثناء وصلت الأخبار من إنجلترا بثورة الأمير «حنا» ضد أخيه «ريتشارد» والذي وجد نفسه في صراع بين خطرين فعليه الإسراع بالعودة إلي مملكته وعليه أيضا الاتفاق مع «صلاح الدين» وحسم الصراع بين «لوز جنان» و«كونراد» فعقد مؤتمرا في عسقلان لحسم الخلاف وترك

الأمر للأمراء الذين اختاروا «كونراد» لعرش بيت المقدس وبعد أيام قليلة وجد«كونراد» قتيلا فى ٢٨ أبريل سنة ١١٩٢ وقيل إنه، قتل بتحريض من «ريتشارد» نفسه والذي اختار الأمير «هنرى دى شامبنى» ملكا لبيت المقدس بعد تزويجه من الملكة «إيزابيل» ورضى «لوز جنان» بحكم قبرص واستمرت أسرته في حكمها من سنة ١١٩٢ - ١٤٧٢م، وبعد أن حل «ريتشارد» مشاكله الداخلية عاود معاركه مع المسلمين فاستولى علي قلعة الداروم في دير البلح بعد مقاومة شديدة في مايو ١١٩٢، ثم اتجه إلي حصن مجدل بابا ولكنه فشل في الاستيلاء عليه فاتجه إلي عسقلان ومنها إلي بيت المقدس.. ورغم حرارة الجو وقلة المياة فقد واصل الزحف حتي وصل إلي بيت نوبة في ١١ يونيه ١١٩٢ وانتظر بها عدة أسابيع في انتظار الامدادات التي سيأتي بها الملك «هنرى دي شامبنى» من عكا وفي هذه الأثناء قام الفرسان المسلمون بغارات كثيرة علي الجيش الصليبي.. كما أمر «صلاح الدين» بتخريب كل مصادر المياه خارج أسوار القدس بحيث لم يبق حول القدس أي ماء للشرب.. كما تمكن الجيش الأيوبى من أخذ قافلة صليبية آتية من يافا وكانت تحمل الكثير من المؤن للجيش الصليبي وذلك في ١٧ يونيه.. وكان «صلاح الدين» قد أرسل إلي مصر يطلب المساعدة فخرجت إليه قافلة كبيرة.. وقد علم «ريتشارد» بأمر هذه القافلة عن

طريق بعض الخونة فكان الأسرع إلي مهاجمتها في ٢٣ يونيه ١١٩٢، واستطاع هزيمتها هزيمة قاسية، واستولى علي كل المؤن وأسر ٥٠٠ ممن كانوا في القافلة وحزن «صلاح الدين» كثيرا.

ورغم قوة تحصينات بيت المقدس فإن عقدة عكا كانت قد تمكنت من كثير من الأمراء فلاموا «صلاح الدين» - لتتواصل حالة الفلتان بين الأمراء بعد رفضهم تحصين عسقلان - لتفرغه لتحصين المدينة وتركه الصليبيين يزدادون قوة وإصرارا علي مهاجمة بيت المقدس التي إن سقطت نجح الصليبيون في السيطرة علي كل البلاد المسلمة.. وهكذا انتقل الخلاف من صفوف الصليبيين إلي صفوف المسلمين، ووجد «صلاح الدين» نفسه في موقف لا يحسد عليه خاصة بعد أن جاءته الأخبار بحدوث بعض القلاقل في دمشق فلم يجد إلا أن يدخل المسجد الأقصى ليصلى ويناجى الله وهو ساجد وسابح في دموعه.. وكأن الله قد استجاب فورا لدموع ومناجاة هذا المجاهد العظيم.. حيث عصفت الانقسامات بالمعسكر الصليبي فبعضهم يؤيد الزحف، علي بيت المقدس وبعضهم يعارض هذا الزحف واضطروا إلي التحكيم بين الفريقين لينتصر رأى «ريتشارد» الذي كان ينادى بعدم محاصرة المدينة لعدم وجود المياه خارج أسوارها. وانسحب الصليبيون إلى الرملة في أواخر يوليو ١١٩٢ ومنها بعث «ريتشارد» يطلب الصلح مع «صلاح الدين».

صلح الرملة.. لا غالب ولا مغلوب

ارتفــعت الروح المعنوية في المعــسكر الإســلامي ودارت مفاوضات صعبة في البداية ثم لانت وانتهت إلي الاتفاق علي السيطرة السياسية للمسلمين علي بيت المقدس.. والسيطرة الدينية للصليبيين علي الأماكن المسيحية، وأهمها كنيسة القيامة وأن يكون للصليبيين ملك البلاد الساحلية من صور إلي يافا بشرط أن تكون عسقلان وما وراءها خرابا ليست للمسلمين أو للصليبيين.. وبذلك اتضح أن «صلاح الدين» قد اهتم في هذه المرحلة بمنع سيطرة الصليبيين علي عسقلان وما يليها من بلدان الساحل في اتجاه مصر مثل غزة والداروم، حتي لا ينقطع الاتصال بين مصر والشام. كما اتفق علي أن تستمر سيطرة المسلمين علي داخلية بلاد الشام. وبعد أن اتفق الطرفان علي كل شيء رفض «ريتشارد» تسليم عسقلان، مما أدى بـ «صلاح الدين» إلي تلقينه درسا قاسيا حيث هاجم يافا بعنف حتي أخذها عنوة وغنم منها أشياء كثيرة وعظيمة.. وكان ذلك في نهاية يوليو ١١٩٢، ولكن عاد «ريتشارد» سريعا بعد أن كان يخطط للاستيلاء علي بيروت واستطاع استعادة يافا من يد «صلاح الدين» والذي حاول معاودة الكرَّة ومهاجمة يافا مرة أخري ولكن بعض أمرائه رفضوا ذلك وكان أحد الأمراء ويدعى «الجناح» هو الذي يقود التمرد بدعوى أن مماليك «صلاح الدين» ينفردون

بالغنائم دون غالبية الفرسان – لتتواصل حالة الفلتان بين الأمراء – وأمام هذا التمرد انسحب «صلاح الدين» إلي يازور ثم إلي النطرون وحاول «ريتشارد» استغلال الموقف بمعاودة الهجوم علي المسلمين، ولكنه مرض مرضا شديدا بعد أن أصيب بالحمى وأوصى له الأطباء بالفاكهة والثلج والتي لم تكن موجودة إلا عند «صلاح الدين» والذى لم يتأخر فى إرسال هذه الأشياء وبانتظام إلى «ريتشارد» إلى أن تعافى من مرضه، وازدادت الأخبار التى تأتيه من بلاده سوءا فقال لأحد أمراء المسلمين (سلم على السلطان وقل له بالله عليك أجب سؤالى فى الصلح فهذا الأمر لابد له من آخر.. وقد هلكت بلادى وراء البحر وما فى دوام هذا مصلحة لا لنا ولا لكم).

وهكذا ذهب «ريتشارد» إلى استجداء الصلح مع «صلاح الدين» لعلمه أنه لم يحقق إلا بعض الانتصارات الجزئية بينما ظلت دولة «صلاح الدين» قوية تمتد من حلب ودمشق وبيت المقدس إلى وادى النيل وتحاصر البقايا الصليبية المتناثرة قرب شواطىء الشام.. وانتكست صحة «ريتشارد» فأصبح أكثر الحاحا فى طلب الصلح الذى أبى «صلاح الدين» إتمامه إلا بعد السيطرة على عسقلان وغزة والداروم.. وفى النهاية تم توقيع صلح الرملة فى ٢ سبتمبر ١١٩٢ والذى ينص على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا بما فيها قيسارية وحيفا

وأرسوف.. أما عسقلان فتكون للمسلمين بينما تكون الرملة واللد مناصفة بين المسلمين والصليبيين واشترط «ريتشارد» دخول حاكم أنطاكية وحاكم طرابلس فى الصلح.. أما الأماكن المقدسة فقد ظلت فى أيدى المسلمين على أن يكون للمسيحيين حرية الحج إلى بيت المقدس دون مطالبتهم بدفع أية ضريبة.. وتم الاتفاق على أن تكون مدة الصلح ثلاث سنوات وثلاثة أشهر.

وصية حاكم.. ونهاية فارس

رغم أن صلح الرملة لم يكن برغبة أكيدة من «صلاح الدين»- الذى خاف من استقواء الصليبيين ومعاودة الغزو والاعتداء - فإن الصلح قد أسعد غالبية المسلمين والصليبيين بعد أن طالت الحروب بينهم وهدهم التعب والكر والفر.. وقبل «صلاح الدين» تعيين اثنين من رجال الدين الكاثوليك فى كنائس القيامة وبيت لحم والناصرة لينضموا إلى نظرائهم الأرثوذكس والسريان واليعاقبة.. وبالغ «صلاح الدين» فى إكرام وفود الحجيج الكثيرة جدا والتى توافدت على القدس لزيارة الأماكن المقدسة.. مما أصاب «ريتشارد» قلب الأسد بالدهشة والعجب وهو الذى طلب عدم إدخال هؤلاء الحجيج إلى القدس إلا بإذن كتابى منه فإذا بسماحة وأخلاق «صلاح الدين» تحتضن هؤلاء الحجيج.. وعاد «ريتشارد» إلى أوربا فى أوائل أكتوبر سنة ١١٩٢ وغادر «صلاح الدين» القدس وترك فيها «القاضى بن شداد» ليتم بناء المستشفى الذى بدأه ومن القدس إلى نابلس ثم كوكب ثم إلى بيروت فى نهاية أكتوبر ١١٩٢ وذلك ضمن برنامج وضعه لنفسه لزيارة وتفقد القلاع والمواقع البحرية.. وفى كل بلد ينزل فيه كان يستمع إلى شكاوى الناس ويعمل على إزالة أسبابها.. كما عمل على إصلاح وتحصين القلاع والحصون ثم اتجه إلى دمشق واجتمع حوله أولاده «الأفضل والظاهر

والظافر» كما اجتمع إليه الأمراء والأعيان وعامة الناس.. وأنشد فيه الشعراء القصائد والمدائح وطاب له المقام فى دمشق بعد سنوات طويلة من الكفاح والجهاد.. ولحق به أخوه «العادل» وأولاده وراح «صلاح الدين» يمارس هواية الصيد التى يحبها.

استأذن «الملك الظاهر غازى ابن صلاح الدين» من ووالده فى الرحيل إلى إمارته فى حلب وشمال الشام فجلس الوالد إلى الابن ليكتب إليه (روشتة) صلاح الراعى والرعية ويعلمه مبادىء رعاية شئون البلاد والعباد فقال: (أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل خير.. وآمرك بما أمر الله به فإنه سبب نجاتك وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد لها.. فإن الدم لاينام.. وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر فى أحوالهم فأنت أمينى وأمين الله عليهم.. ولاتحقد على أحد.. وحذار ما بينك وبين الناس، فإنه لايغفر إلا برضاهم أما ما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فإنه كريم).

وقد كانت أهداف «الحاكم صلاح الدين» تتلخص فى التيسير والتخفيف عن الناس ولذلك رفع عنهم غالبية الضرائب ومن أغرب الضرائب التى ألغاها ضريبة الحج حيث كان كل حاج يدفع سبعة دنانير بهدف إعمار مكة والمدينة فالغى السلطان هذه الضريبة وكان يدفع من ميزانية الدولة كل القيمة التى كان يتم تحصيلها من الحجاج.. وبذلك أعفى فقراء المسلمين الذين يتشوقون لزيارة الأماكن المقدسة

من هذه الضريبة التى كانت عبئا ثقيلا عليهم.. وقد انشغل «صلاح الدين» طوال فترة حكمه ببسط العدل ونشر الأمن وزيادة الإعمار وبناء المرافق التى تعمل على راحة ورفاهية الرعية.. واهتم كثيرا بالتعليم خاصة للأيتام والفقراء.. واهتم أيضا ببناء المستشفيات التى يعمل بها كثير من الأطباء الذين يعالجون الناس مجانا ويصرفون لهم الدواء مجانا أيضا.. وقد وصف المؤرخ الأندلسى «ابن جبير» أهل مصر تحت حكم «صلاح الدين» بأنهم (فى نهاية من الترفيه واتساع الأحوال)..

وقد كانت أخلاق «صلاح الدين» وسماحته وزهده هى السياج الذى يضمن التزام حكومته وعدم انحرافها.. ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه كان ينظر فى شكاوى الناس بنفسه.. وإذا لم يكن مشغولا بالجهاد فإنه كان يخصص يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع للنظر فى شكاوى الرعية.

بعد أن استراح «صلاح الدين» فى دمشق عدة أيام استدعى إليه صديقه «القاضى بن شداد» من القدس والذى أكد أنه قد لاحظ على السلطان ثقل الحركة والكسل وانحراف المزاج عكس ما كان عليه طوال حياته.. ورغم هذا فقد خرج «صلاح الدين» لوداع الحجيج إلى أرض الله الحرام، وأحاط به خلق كثير وقد كان فى قمة الشوق للحج إلى الأراضى المقدسة ولكن الجهاد لم يترك له أى وقت لأداء فريضة الحج.. وعاد إلى بيته ليصاب فى نفس الليلة بالحمى

الصـفـراوية التى أعـيت الأطبـاء وانـتـشـر المرض فى جـسـده سـريعـا فراح يشكو آلاما شـديدة فى رأسـه وبرودة فى جسـده ولم يكن يـدخل عليـه فى مـرضـه من غـيـر أهله إلا «القـاضـى الفـاضـل» و«القـاضـى ابن شـداد».. وبعـد عـدة أيام من بداية المرض بدأ يغـيب عن الوعـى وتنتابه حـالات اغـمـاء بين حـين وآخر وتزداد كمية العرق التى يخرجها جسمه وتحسنت حالته قليـلا فى اليوم العـاشـر لبداية المرض -ولكنـهـا كـانت صـحـوة الموت- وفى ليلة الأربعـاء السابـع والعشـرين من صـفـر ٥٨٩ هـ (مـارس ١١٩٣هـ) وهـى الليلة الثـانيـة عشـرة من مـرضـه سـاءت حـالتـه جـدا وجـاءوا له بمن يقـرأ القـرآن عنـد فـراشـه وراح الرجل يتلو حـتى إذا مـا وصل إلى قـوله تعـالى: «لا إله إلا هو عليه توكلت» تبسـم وجه «صـلاح الديـن» وتهلل وانـتقلت روحـه إلى رضـوان الله.. حـيث دفن فى قلعـة دمـشق ثم بنـى له ابنه «العزيز عثمان بن صلاح الدين» ضريحـا شمـالى جامع دمشق قـرب المدرسـة العـزيـرية وتم نقل الجـثـمـان إليـه.. وقـد توفى «صـلاح الدين» عن سـبع وخـمـسـين سـنـة قـضـى منهـا ثـلاثين عـامـا فى الجـهـاد والكفـاح ضـد الصليبـيـين.. مـات ولم يتـرك ضيـاعـا ولا دارا ولا عـقـارا ولا بسـتـانا ولا قـرية ولا مـزرعـة ولا شيئا من أنواع الأملاك حيث اسـتنفدت الصدقات التى اعتاد أن يوزعها جميع ما لديه من أموال..

مات «صـلاح الدين» ولم يجدوا فى خزانته سـوى ٤٧ درهـمـا وجـرامـا واحـدا من الذهـب.. ورغم مـا اتسم به «صـلاح الدين»

من (زهد نبيل) إلا أن بعض غلاة الشيعة لايرون فيه إلا ذلك الرجل الذى قضى على الخلافة الفاطمية الشيعية فيوجهون إليه سهام الاتهامات، فتارة هو الثرى الذى يملك الضياع ويذهبون إلى أن الفيوم كانت ملكا خاصا له وأن الشرقية كانت ملكا خاصا لابنه العزيز.. ولم يكتف بعض غلاة الشيعة بذلك بل اتهموه بالعمل على هدم أهرامات الجيزة وتدمير مكتبة القصر الفاطمى وهى فى رأيهم أعظم المكتبات.. لكن كل هذه الاتهامات والأباطيل لاتصمد طويلا أمام إنجازات «صلاح الدين» المجاهد الزاهد.

الحق ما شهدت به الأعداء

كثيرة هى الكتابات التى أشادت بـ«صلاح الدين الأيوبى» وامتدحته وحللت عناصر العبقرية فى شخصيته وإنجازاته.. ورغم كثرة هذه الكتابات فإن ما خطه «الخصوم والأعداء» من المؤرخين والكتاب الغربيين ـ سواء من معاصرى «صلاح الدين» أو ممن جاءوا بعده ـ يظل هو الأبرز والأكثر استحقاقا للرصد والاحتفاء.. وذلك انطلاقا من الحكمة العربية القديمة التى تقول «الحق ما شهدت به الأعداء».. وقد كتب عدد كبير من مؤرخى وكتاب الغرب عن «صلاح الدين» وبطولاته وسماحته وفروسيته وتواضعه ليصبح من الصعب ـ بل من المستحيل ـ الإحاطة بكل هذه الكتابات فى صفحات قليلة.. ولذلك نتوقف عند نموذج واحد هو «السير هاملتون جيب» المستشرق المعروف والذى كتب كثيرا فى الأدب والتاريخ وفى الشئون الاجتماعية المتصلة بهما.. كما اتسم فى كل كتاباته بالاتزان وعدم المساس بالعقائد الدينية.. وقد رأى «السير جيب» فى «صلاح الدين» نموذجا للبطولة العظيمة التى استحقت الشهرة التى ذاعت عن صاحبها وحوله بين أبناء الغرب والشرق على السواء.. وذلك لأنها بطولة تقوم على الإنجاز.. ولا تقوم على مجرد الشهرة العامة، كما أنها «بطولة شاملة» ففى البطولات العسكرية متسع لأنواع كثيرة

من البطولات مثل بطولة القيادة.. وبطولة التعبئة.. وبطولة الحركة السريعة.. وبطولة الدفاع.. الخ..

ويقول «السير هاملتون جيب» مشيدا بـ «صلاح الدين» ومنتقدا بعض أخطائه:

كان «صلاح الدين» بطلا منتصرا فى أكثر مواقعه وميادينه.. ولكن بطولته فى القدرة على التعبئة كانت أكبر وأبرز من بطولته فى فن القيادة وتوجيه الجيوش أثناء المعمعة.. ففى هذا المجال لم يكن مستجمعا لثقة العسكريين من حوله.. ولم تكن مخالفتهم إياه بالأمر النادر.. وفى بعض الظروف المحرجة وإن تبين فيما بعد أنهم مخطئون وأنه كان على صواب.. والتعبئة الروحية كانت فى مقدمة فنون التعبئة التى أتقنها بطل الحروب الصليبية فإن هذه التعبئة الروحية كانت ألزم له من سائر فنون التعبئة العسكرية وابتعاث العسكرية لم تكن فى بابها أمرا يسيرا يستطيعه كل من تصدى له من المجاهدين الغيورين.. لأن تسيير جيش من أمم الشرق الأوسط يجمع بين العرب والأكراد والترك والرعايا الموالين للعباسيين والمواطنين الموالين للفاطميين أمر شديد الصعوبة.. وذلك لأنهم أجناد تختلف بواعثهم إلى الاشتراك فى الحرب الصليبية وتختلف أوقاتهم التى يستعدون فيها للمشاركة فى كل ميدان وكل هجمة أو مدفعة تأتى على استعداد أو على حين غرة.. كل أولئك فن من فنون التعبئة العسكرية لا يقدر عليه كل قائد ولا يقدم عليه كل فارس ولو

كان أعلم بالفروسية من «صلاح الدين».. وقد كان فى جيش «صلاح الدين» كثير من الفرسان أخبر وأعلم بفنون الفروسية منه ولكن لم يكن فى زمانه كله من هو أقدر منه على جمع القوى وتأليف الشعاب واختيار الزمن والموقع الذى يصلح للهجوم.. أو يصلح للدفاع.. ولقد كان «صلاح الدين» حصيفا عليما بطبائع الناس.. ولكنه لا يوصف بالمكر والدهاء ولا يحسب من دهاة الساسة المعدودين فى تاريخ الإسلام.. وكان وفاؤه بالوعد مضرب المثل فى معسكر الفرنجة.. ومعسكر الإسلام.. ولو لم يكن حسن الظن بالناس لما تورط فى بعض وعوده التى اضطره الوفاء إلى المحافظة عليها.. لأنه كان يأبى الغدر وينتظر من غيره مثل هذا الاباء.. فيصدق ظنه فى حين.. وتخيب ظنونه فى أحيان.. ولكنه كان يملك القدرة على تدارك لخطأ بعد وقوعه لفرط إيمانه بحقه وحق القضية التى تصدى لها ووقف جهوده عليها ومن عادة الناس أن ينظروا إلى أكبر أعمال البطل وأدلها على القدرة والكفاية فيحسبوا أنها هى المقصد الذى تحراه من جميع أعماله.. وهى الغاية الأولى والأخيرة من جميع جهوده وتدبيراته.. ولا خلاف على أن العمل الأكبر الذى تصدى له «صلاح الدين» وأفلح فى انجازه هو وقوفه ضد الجيوش الصليبية والتغلب على آمراء الصليبيين وقادتهم فى ميادين الحرب والسياسة.. ومن الخطأ أن يقال إنه هو العمل الوحيد الذى توخاه وانصرف إليه بتدبيره وسعيه من بداءة حياته.. وذلك لأن

شاغله الأكبر قبل كل شاغل كان تدعيم الدولة الإسلامية المتصدعة واقتلاع جذور الفساد والشقاق من دواوينها ومعاهد إدارتها.

وقد كان «صلاح الدين» «الإدارى» أو المدير هو «صلاح الدين» الحق فى رأى نفسه ورأى المتعقبين لمساعيه ودواعى أعماله... ويزداد حقه فى الإعجاب والإكبار كلما لوحظ من مساعيه المتتابعة أن أغراض الطموح.. ومطامع النفس لم تسيطر عليه ولم تصرفه عن عنايته الشاملة.. من تدعيم الدولة العباسية وتغليب الألفة بين أجزائها على أسباب التفرقة والانقسام.. وهو على علو همته واعتداده بكفايته لم يطمع فى كل ما كان يستطيعه فى السلطان.. ولا فى كل ما كان ميسورا له بقوته العسكرية وثروته المالية.. وعلاقاته بأرباب القوة والثراء فى الولايات الأخرى.. آية البطولة فى «صلاح الدين الأيوبى» أنه غلب نفسه كثيرا كما غلب أعداءه الفرنجة والمسلمين.. وأنه حكم نفسه كثيرا قبل أن يحكم رعاياه من المطيعين له أو المتمردين عليه.

وهكذا استطاع العلامة «هاملتون جيب» من خلال اطلاعه الواسع على مصادر أعمال «صلاح الدين» ومصادر تاريخ عصره ومصادر الأقوال التى نسبت إلى المتصلين به ممن عاملوه فى ميادين سياسته وحروبه أن يقدم رؤية تتصف بالتوازن والانصاف عن «صلاح الدين الأيوبى» البطل الذى تؤكد مسيرته على أنه نموذج للحاكم الذى تتفوق إنجازاته وايجابياته كثيرا على سلبياته وأخطائه.

ما بعد صلاح الدين

الحملة الصليبية الرابعة

تولى الملك «العادل» أمر الدولة الأيوبية بعد رحيل شقيقه «صلاح الدين» واستقر رأى الصليبيين على أن تكون مصر هدف حملتهم الرابعة وتحركوا فى البداية بجيش قوامه من ٨ - ١٠ آلاف فارس تم تجنيدهم فى نهاية عام ١٢٠٠م.. وبعد أحداث كثيرة استمرت أربع سنوات تغيرت خلالها وجهة الحملة لتحاصر القسطنطينية فى أبريل ١٢٠٤م وسقطت المدينة المسيحية فى ١٢ أبريل فأحرقها الصليبيون وقتلوا كثيرا من سكانها ونهبوها.. حتى الكنائس والأديرة لم تسلم من النهب والسلب بل اقتحموا كنيسة أيا صوفيا وحطموا كل شىء فيها وداسوا الكتب المقدسة بأقدامهم.. ويذهب كثير من المؤرخين إلى أن الحملة الصليبية الرابعة كانت بداية لفشل الحركة الصليبية بأكملها بعد أن انكسرت الفكرة الأساسية لهذه الحملات بما ارتكبه الصليبيون من جرائم ضد المسيحيين فى القسطنطينية.

الحملة الصليبية الخامسة

أبحرت السفن الصليبية عام ١٢١٧م متجهة إلى قبرص ومنها إلى عكا.. ثم توجهت الحملة إلى دمياط أواخر ١٢١٨ ونزلت فى منطقة جيزة دمياط.. وكان «العادل» يراقب

تحركات الصليبيين من دمشق وكان ابنه «الكامل» يحكم مصر فسارع بجيشه إلى منزله العادلية وأمر «العادل» ابنه «الأشرف» بمهاجمة الصليبيين فى حمص حتى يخفف ضغطهم عن دمياط.. وتمكن الصليبيون من الاستيلاء على برج السلسلة بعد مقاومة أربعة أشهر.. ويمثل هذا البرج (قفل الديار المصرية) وحزن العادل لسقوط هذا البرج ومرض مرضا شديدا حتى توفى فى أغسطس ١٢١٨ ..ولم يستسلم الكامل للحزن على رحيل والده وأقام جسرا كبيرا بعرض النيل فقطعه الصليبيون.. فأغرق «الكامل» عدة مراكب فى النيل ليعوق تقدم السفن الصليبية. فحفروا خليجا كان النيل يجرى فيه قديما وأجروا فيه الماء إلى البحر فاستطاعت سفنهم أن تتقدم إلى موضع مقابل لمنزلة العادلية.

وتشجع صليبيو الشام وهاجموا بعض البلدات المسلمة ولكنهم هزموا بقسوة..

وفى أوائل أكتوبر ١٢١٨ هاجم الكامل معسكر الصليبيين ولكنه تراجع بعد أن تفشت المؤامرات فى معسكره.. واتفق «الكامل» مع شقيقه المعظم «عيسى» ملك الشام على عقد صلح مع الصليبيين يشترط عليهم رفع الحصار عن دمياط مقابل حصولهم على كل ما استولى عليه «صلاح الدين» بما فى ذلك القدس ما عدا حصن الكرك وقلعة الشوبك مع عقد معاهدة صلح لمدة ٣٠ سنة.. وقد قبل (حنا دى برين) قائد

الحملة هذه الاتفاقية ولكن المندوب البابوى «بلاجيوس» لحسن الحظ رفض الموافقة عليها.. وتواصلت أعمال الحملة حتى سيطر الصليبيون على دمياط فى نوفمبر ١٢١٩م.. وفجأة انقسم المعسكر الصليبى على نفسه فانسحب «حنا دى برين» إلى عكا فى مارس ١١٢٠م، وفى أواخر يونيه ١٢٢١ قرر «بلاجيوس» الزحف على القاهرة فعاد «حنا دى برين» إلى دمياط أوائل يوليو ١٢٢١ وأقام الأيوبيون خطا دفاعيا قبالة طلخا وأقام الكامل منزله على الضفة الشرقية وسماه المنصورة واجتمع الأشقاء الثلاثة (الكامل والمعظم عيسى والأشرف) ومعهم جيوشهم استعدادا للمعركة الفاصلة.. وتقدم الصليبيون وسط مثلث كبير تحيطه المياه من ثلاث جهات (بحيرة المنزلة شرقا - فرع دمياط غربا - البحر الصغير جنوبا) ودارت المعركة واستثمر «الكامل» فيضان النيل وفتح عليهم القناطر المقامة على الشاطىء الأيمن لفرع النيل فغمرت المياه معسكر الصليبيين وفى أواخر أغسطس ١٢٢١ عقدت معاهدة صلح بين الطرفين نصت على انسحاب الصليبيين من دمياط وأن يكون مدة المعاهدة ٨ سنوات ولايجوز نقضها وأرسل الصليبيون عشرين من زعمائهم رهائن حتى يتم انسحابهم الذى اكتمل فى سبتمبر ١٢٢١ لتفشل الحملة الصليبية الخامسة.

الحملة الصليبية السادسة

انفرط عقد أبناء «العادل» نتيجة مطامع «المعظم عيسى» فى أملاك أخويه حيث أغار على حماة.. ولجأ كل طرف منهما إلى الاستعانة بالقوى الخارجية فاستنجد «المعظم عيسى» بالخوارزميين.. واستنجد الكامل بالامبراطور الرومانى «فردريك الثانى» الذى كان يسعى لاستعادة بيت المقدس فعرضها عليه «الكامل» مقابل أن يقف معه ضد أخيه.. وأسرع «فردريك الثانى» قاصدا بلاد الشام فى يونيه ١٢٢٨ لتبدأ الحملة الصليبية السادسة.. وعلى عكس كل الحملات كانت هذه الحملة ملعونة من البابا وقائدها محروم من الكنيسة ولذلك وصل «فردريك» إلى الشام ومعه ٥٠٠ فارس فقط وجاء ليفاوض لا ليحارب وقد فوجىء بتغير «الكامل» بعد وفاة شقيقه «المعظم عيسى» فى أواخر ١٢٢٧ وزوال الخطر حيث خلفه ابنه الشاب «الناصر داود» وساء موقف «فردريك» بعد علمه باعتداء البابا على أملاكه فراح يتذلل لـ «الكامل» ليعطيه أى شىء مما اتفقا عليه من قبل.. وتسرع الكامل وعقد اتفاقية يافا فى فبراير ١٢٢٩ والتى نصت على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة وصيدا مع إبقاء الحرم القدسى بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى بأيدى المسلمين وتقام فيه الشعائر الإسلامية.. وقد استنكر المسلمون تضييع «الكامل»

لانتصارات «صلاح الدين».. كما استنكر الصليبيون هذه الاتفاقية لرغبتهم فى استعادة بيت المقدس بحد السيف، ولأنها لم تشمل ضم الكرك والشوبك ودخل «فردريك» القدس فى ١٧ مارس ١١٢٩ ليتسلمها من «القاضى شمس الدين» مندوب الكامل ثم غادرها إلى عكا فى مايو ١٢٢٩ قاصدا قبرص لينقذ أملاكه فى إيطاليا والتى اعتدى عليها البابا.. ورغم أن الصليبيين خلال هذه الحملة لم يتمكنوا بشكل كامل مما منحتهم إياه هذه الحملة إلا أن «الكامل» بتخاذله ورعونته وعدم بصيرته قد أضاع انتصارات عمه العظيم «صلاح الدين».

الحملة الصليبية السابعة

مـا إن انتـهت مـدة الاتفـاقـيـة التى عـقـدها «الكامل» مع «فـردريك» فى ١٢٣٩ حـتى دعت البـابوية لحـملة صليـبيـة جديدة وصلت الشام أول سبتمبر ١٢٣٩ وعلى رأسها الأمير «ثيـبـوت الرابع» فـسـارع «النـاصـر داود» إلى اسـتـرداد بيت المقدس.. فقرر «ثيبوت» مهاجمة عسقلان والسيطرة عليها ثم الاتجاه إلى دمشق ولكنه انهزم هزيمـة سـاحقـة بالقـرب من غـزة على يد جيش «العـادل الثـانى ابن الكامل» والذى خلف أباه فى حكم مصـر.. وفجـأة عادت الخـلافات البغيضـة إلى البيت الأيوبى حيث أتفق «نجم الدين أيوب» (ابن الكامل) مع «النـاصـر داود» على خلع أخيه «العادل الثانى» من حكم مصر مـقـابل أن يسـاعـده فـى الحـصـول على دمـشق مـن «الصـالح إسماعيل» والذى سارع بالاستنجاد بالصليبيين مقابل منحهم بيت المقدس وطبرية وعسقلان وعددا من قلاع الشـام.. بل دعـاهم للهـجـوم على مـصـر علـى أن يأخـذوا جـزءا منهـا.. فتحرك «ثيبوت» ومعه جيش «الصالح إسماعيل» صوب مصر والتقى الجـيـشـان قـرب غـزة حـيث رفـضت غـالبـيـة جـيش «الصالح إسماعيل» الحرب إلى جوار الصليبيين وانضموا إلى جيش «الصالح أيوب» وانتهى الأمر بهزيمة جديدة للصليبيين وحليفهم «الصالح إسماعيل» وعقد «ثيبوت» صلحا سريعا مع «الصـالح أيوب» وسـارع بعـدها للعـودة خـائبـا إلى الغـرب فى

سبتمبر ١٢٤٠ وسريعا ما وصلت حملة جديدة إلى عكا بقيادة «ريتشارد دى كورنول» شقيق ملك انجلترا والذى اكتفى بتحصين عسقلان ثم وافق على احترام الصلح الذى وقعه «ثيبوت» مع «الصالح أيوب» والذى أبقى بيت المقدس فى أيدى الصليبيين وقرر العودة إلى بلاده فى مايو ١٢٤١.

دب الخلاف مرة أخرى فى البيت الأيوبى وانضم «الناصر داود» «للصالح إسماعيل» ضد «الصالح أيوب» وقدم الطرفان عرضا سخيا للصليبيين وهو تقديم كل بيت المقدس وهو الأمر الذى لم يجرؤ عليه «الكامل» نفسه.. وفرح الصليبيون بهذا العرض وكان عليهم فى النهاية الانحياز إلى طرف ضد الآخر فقرروا الانحياز لـ «لصالح إسماعيل» ومهاجمة مصر.. واستنجد «الصالح أيوب» بالخوارزميين الذين تقدموا واستولوا على بيت المقدس ثم انضموا إلى جيش «الصالح أيوب» والتقوا بالجيش الصليبى وحلفائه بالقرب من غزة ودارت معركة حامية الوطيس فى أكتوبر ١٢٤٤ انتهت بهزيمة ساحقة للصليبيين وحلفائهم.. ثم انقلب الخوارزميون على «الصالح أيوب» الذى هزمهم واستطاع أن يفرض سيطرته على دمشق فأعاد توحيد الدولة الأيوبية.. وامتدت دولته لتشمل مصر ودمشق وبيت المقدس.. وهكذا فشلت الحملة الصليبية السابعة.

الحملة الصليبية الثامنة

دعت البابوية إلى حملة جديدة لم تلق قبولا إلا عند «لويس التاسع» ملك فرنسا والملقب بالقديس. وقد رفض كل ملوك أوروبا فكرة هذه الحملة بعد أن تغيرت أفكارهم وتولدت لديهم الرغبة فى التحرر من استعباد الكنيسة.. وبدأ «لويس التاسع» فى الاستعداد للخروج بحملته.. فأرسل الامبراطور «فردريك الثانى» سرا إلى «الصالح أيوب» يخبره بنبأ الحملة وكان «الصالح أيوب» مريضا فى دمشق فسافر رغم المرض إلى مصر.. واستغرق «لويس التاسع» ثلاث سنوات فى إعداد حملته وجهز أسطولا كبيرا لنقل الجنود ووصل إلى قبرص فى سبتمبر ١٢٤٨ ولم يغادرها إلا فى مايو ١٢٤٩ مبحرا صوب مصر فوصل إلى دمياط فى يونيه ١٢٤٩وسارع «الصالح أيوب» يأمر بتحصين دمياط ولكن قائده «فخر الدين يوسف» ظن أن الملك قد مات فترك الصليبيين يحتلون دمياط وذلك فى ٥ يونيه ١٢٤٩ فعمل «لويس التاسع» على تحويل مسجد المدينة إلى كاتدرائية وغضب «الصالح أيوب» لسقوط المدينة بهذه السهولة وأمر الجيش بإعادة التمركز فى المنصورة وأشرف على كل شىء رغم مرضه ـ وفى المقابل لم يستفد الصليبيون من أخطاء الحملة الخامسة «١٢١٩م» حيث لم يتقدم «لويس» من دمياط إلى القاهرة قبل أن يفيق الأيوبيون وقبل حلول الفيضان فمكث «لويس التاسع» فى

دمياط خمسة أشهر انتظارا لوصول مساعدات أخيه والتى وصلت فى أكتوبر ١٢٤٩ فقرر الزحف إلى القاهرة.. وفجأة توفى «الصالح أيوب» فى نوفمبر ١٢٤٩ وكان له ابن واحد اسمه «توران شاه» وهو شاب مستهتر وعديم الخبرة.. فظهرت على مسرح الأحداث «شجرة الدر» زوجة «الصالح أيوب» والتى أدركت خطورة إعلان خبر وفاة «الصالح» فى تلك الفترة الحرجة.. وعدم وجود حاكم للبلاد فى ظل غياب «توران شاه» بعيدا عن مصر.. ولذلك أخفت خبر موت زوجها وأرسلت تستدعى ابنه من حصن كيفا وقامت بإدارة شئون البلاد مستخدمة ذكاءها حتى لا يكتشف أحد غياب الملك.. ورغم هذا علم الصليبيون بالخبر عن طريق جواسيسهم فسارعوا إلى فارسكور ومنها إلى قبالة المنصورة وعبروا النيل وهاجموا الجيش الأيوبى وقتل قائده الأمير «فخر الدين».. ولكن الأيوبيين تماسكوا واستطاعوا بقيادة «ركن الدين بيبرس» قائد المماليك البحرية أن يهزموا الصليبيين هزيمة قاسية فى معركة المنصورة ١٢٤٩ ـ ووصل «توران شاه» فى فبراير ١٢٥٠ فارتفعت الروح المعنوية للجيش.. ورغم ذلك اتبع «توران شاه» سياسة عنيفة مع «شجرة الدر» وأمراء المماليك مما أدى إلى غضبهم.. وعرض الصليبيون الصلح مع تسليم دمياط والأراضى التى استولوا عليها على أن يتنازل «توران شاه» عن بيت المقدس وبعض المدن الساحلية بالشام وتم رفض هذا العرض فلم يجد «لويس التاسع» أمامه إلا

الانسحاب فهاجمه الجيش الأيوبى ودارت معركة عند فارسكور انتهت بهزيمة ساحقة للجيش الصليبى وقتل كثير منهم وتم أسر الآلاف ومن بينهم «لويس التاسع» نفسه.. وتم ايداعه فى دار «القاضى فخر الدين بن لقمان» فى المنصورة.. وتم التفاوض على الانسحاب من دمياط وتقديم فدية مالية كبيرة لفك أسر «لويس التاسع».. وعقد صلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات.. وقبل تنفيذ الاتفاقية قتل «توران شاه» على أيدى المماليك عام ١٢٥٠ نتيجة سلوكه العدائى ضدهم.. وبدأت المفاوضات من جديد وفى ٨ مايو ١٢٥٠ غادر «لويس التاسع» مصر مع بقايا جيشه بعد أن سدد أموال فديته.

وهكذا لم تضع مصر نهاية للحملة الصليبية فقط ولكنها وضعت نهاية لكل الفكر الصليبى فى ذلك الوقت ليتكفل المماليك بعد ذلك بتطهير بلاد الشام من الصليبيين. وبسقوط هذا الفكر زالت واحدة من أهم الحملات العنصرية فى تاريخ البشرية تلك الحملات التى استخدمت أحط أنواع البشر من المجرمين والسفاحين وقد أشار المؤرخ الفرنسى «جوستاف لوبون» إلى ذلك فى كتاب «حضارة العرب» حيث أكد أن فشل بعض الحملات الصليبية يكمن فى انغماس جنودهم فى الفجور والفسق.

بعد الحملات الصليبية عمت الحركات الإصلاحية كل أوروبا وتحرك المفكرون لتحرير العقول من هذه الخرافات

العنصرية والاستعمارية والتى مهما تطل فمصيرها إلى زوال. والغريب أن أحفاد الصليبيين القدامى قد خرجوا من أمريكا وأوروبا فى حملات صليبية جديدة ضد الشرق الإسلامى تحت دعاوى واهية.. مما جعلنا أمام خيارين لا ثالث لهما فإما أن نقاوم وإما أن ننتظر «صلاح الدين»..

صلاح الدين..

قِبلة الشعر والشعراء

استطاع صلاح الدين الأيوبى ـ البطل والإنسان ـ أن يفجر ينابيع الشعر لدى كل شعراء عصره.. فهو الإنسان الذى تجسدت فيه أهم الأخلاقيات والمثل.. وهو البطل الذى تجسدت فيه أحلام وآمال الأمة.. ولذلك راح الشعراء يمطرونه بقصائدهم البديعة ليس نفاقا ولا تزلفا بل حبا وإيمانا بقامة وقيمة هذا البطل العملاق.. وكان الشعراء ينشدونه شعرهم أو يرسلونه إليه حيث كان..

ومن ذلك ما ذكره العماد الكاتب فى الخريدة كنت جالساً بين يدى الملك الناصر صلاح الدين بدمشق فى دار العدل فحضر الشاعر «سعادة الضرير» وهو من أهل حمص ووقف ينشد هذه القصيدة فى العاشر من شعبان سنة ٥٧١ هـ.

حيَّتك أعطاف القدود بيانها

لما انثنت تيهاً على كثبـــانها

وبعد غزل القصيدة ووصف دمشق قال يصف صلاح الدين:

سلطـــانها الملك ابن أيــوب الذى

كفَّاه لاتنفـــك عـــــن هَطَلانها

غيث يكـــــر من الظُّبَى بصـــواعق

ماء الردى يجــــرى على نيــرانها

بصوارم أجفانها قمم العـــــدى

لا ما كساها القين من أجفانها [١]

ملك إذا جليت عــرائس ملكــه

رَصَعَت فريد العدل فى تيجانها

وإذا جحافله أثرن سحائباً

لمعت بروق النصر فى أحضانها

ويستمر سعادة فى إنشاد قصيدته التى بلغ ما أورده العماد منها أربعة وسبعين بيتاً [٢].

وفى اليوم التالى قام، وقد احتفل الحفل، بحضور أهل الفضل، فأنشده:

لا يقعدنك ما حلوا وما عقــدوا

هم الذئاب، وأنت الضيغم الأسد

ويظل فى إلقاء قصيدته التى بلغت خمسة وستين بيتا، يختمها بقوله:

فاسلم، وجيشك لا يُثّنَى له علم

واسعد، وبيتك لا تهوى له عُمُدُ

١ـ القين: الحداد، والأجفان: جمع جفن، وهو: غمد السيف

٢ـ خريدة القصر ١ : ٤٠٦ وما يليها.

بحيث من مخطف لدن له طنب

وحيث من مرهف عضب له وتد [1]

وحيث شأنك سام ماله صبب

وحيث شانيك هاو ماله صُعُدُ [2]

وروى العماد فى الخريدة أيضاً[3] أن البهاء السنجارى «وهو من الموصل» قام فأنشد الملك الناصر قصيدة فى دار العدل بدمشق سنة إحدى وسبعين وخمسمائة فى شعبان منها:

جَرَّدتِ من فتكات َلحْظِك مُرْهَفا

وهززت من لين القوام مثقفا [4]

ومنها فى وصف صلاح الدين:

وجرى بى الأمل الطمــوح، فأمَّ بى

سلـــطان أرض الله طُرًا يوســـفا

الناهـــب الأرواح فى طلب العـــلا

والواهب الآجال فى حسن الوفـــا

مولـــى له فى كـــــل يوم يُجتـــلى

ملك يجدد، أو مليـــك يصـــطفى

١ـ الطنب: حبل طويل يشد به سرادق البيت، والمرهف: السيف، والعضب: القاطع.
٢ـ خريدة القصر ١ : ٤١٢.
٣ـ ٢ : ٤٠٢.
٤ـ المثقف: الرمح.

ملك ملائكة السـمـاء جنـوده

والسعد عند ركابه إن أوجفـا [1]

والله ناصـره على أعـدائه

كتب القضاء له بذلك أحـرفا

وحينا يرد الشعراء إليه، وهو فى مخيمه، فهذا مهذب الدين عبدالله بن أسعد الموصلى يفد عليه، وهو مخيم بالعاصى، عندما وصل إلى حمص، وينشده فى مدحه. ومما قال فيه:

وما خضع الفرنج لديك حتـى

رأوا مالا يطاق من الكفـاح

وما سألوك عقد الصـلح ودا

ولـكن خـوف مُعْلِمَةٍ رَدَاح [2]

ملأت بلاده سهلاً وحـزناً

أسودا تحت غابات الرماح [3]

وقد يرسلون إليه بقصائدهم من غير أن ينتقلوا إليه، فقد أرسل إليه سبط بن التعاويذى بقصائده من بغداد [4]، وأرسل إليه من مصر أبو على الحسن بن على العراقى الجوينى قصيدة منها:

١ـ أوجف الفرس: جعله يعدو عدوًا سريعاً.
٢ـ المعلمة: الكتيبة التى تعلن عن نفسها فى الحرب، والرداح: الثقيلة الجرارة.
٣ـ الروضتين ٢ : ١٦ و١٧
٤ـ راجع ديوان سبط بن التعاويذى ص ١٨ و ٢٢ و ١٠٨، ووفيات الأعيان ٢ : ٤٠٣.

يا مليكا أضحى الزمان يناجيـ

ـه بلفظ المذلل المسكين

قَذَفَتْ أهلها الحصون إلى بأ

سك، حتى عوضتهم بالسجون

وأراهم رب السماء بأسيا

فك مالم يجل لهم فى ظنون

يامليكا يلقى الحروب بحول اللـ

ـه مستعصماً وصدق اليقين

إن هذا الفتح المبين شفاء

لصدور، وقرة للعيون [1]

وقد انتبه الشعراء إلى سجايا وصفات صلاح الدين فى وقت مبكر جد، وقبل أن يصبح ملكا أو سلطانا فعندما ولى أمور الأمن فى دمشق قال الشاعر العرقلة يهنئه:

لصوص الشام، توبوا من ذنوب

تكفرها العقوبة والصفاد [2]

لئن كان الفساد لكم صلاحا

فمولاى الصلاح لكم فساد

١ـ الروضتين ٢ : ٩.

٢ـ الصفاد: ما يوثق به الأسير : القيد.

وهنأه بقصيدة أخرى يقول فيها :

رويدكم يا لصـــــوص الشـــــا

م، إنى لكم ناصح فى مقـــــالى

وإياكـــــم وسَمِىَّ النبـــــــــ

ـى: يوسف رب الحجى والجمال

فذاك مُقَطِّعُ أيدى النســــــا

ء، وهذا مقطع أيدى الرجـــال

كـمـا رفع العـرقلة يده إلـى السـمـاء يطلب من الله أن يلى صلاح الدين أمر مصر عندما جاء إليها مع عمه أسد الدين شيركوه، فيقول:

رب كما ملكتها يوسف الصـــــ

ـديق من أولاد يعقـــــــــوب

يملكها فى عصرنا يوسف الصـ

ـادق مـــــــن أولاد أيـــوب

من لم يزل ضراب هام العــدى

حقا، وضــــراب العـــراقيب

فلما عاد إلى دمشق حثه العرقلة على العود إليها، فقال:

إلى كم ذا التونى فى دمشق

وقد جاءتكم مصــــر تَهَادَى

عروس بعلها أســـــد هِزَبرٌ

يصيد المعتدين، ولن يصادا

ويشـتـد أمل الشـعـراء فى أن يسـتـقـر صـلاح الدين بمصـر، ويجتـمـع فيهـا شـمله بأبيه وإخوته، فـيقـول العـمـاد الكاتب لنجـم الدين أيوب والد صـلاح الدين:

أخوك وابنك صدقاً منهما اعتصما

بالله، والنصر وعد غير مكـــــذوب

هما همامان فى يومى وغى وقوى

تعودوا ضرب هام أو عـــــــراقيب

غداً يشبان فى الكفار نار وغـــى

بلفحها يصبح الشبان كالشـــــيب

بملك مصر ونصر المؤمنين غـــداً

تحظى النفوس بتأنيس وتطييـــب

ويســــتقر بمصر يوســـــــف، وبه

تقر بعد التنـــائى عين يعقـــوب

ويلتقى يوسف فيها بإخـــــــوته

والله يجمعهم من غير تثريب [1]

أما الأحداث التى صـاحبت قدومه إلى مصـر، وعودته منها، ولقـاؤه للفـرنج، وهـزيمتـهم أمـامـه، وحصـاره فى الإسـكندرية، وخداع شاور له فيسجلها العماد فى قوله:

١ـ التثريب: القوم والتعيير بالذنب.

لاذ بالنيل شاور مثـــــل فرعـــو

ن، فذل اللاجـــى، وعز العبـــور

شارك المشركين نعيا، وقـــــدما

شاركتها قريظـــة والنضـــــــير

والذى يدعـــى الإمـــامة بالقـــا

هــــرة ارتـــاع أنـــه مقهـــــور

وبنو الهمفرى هـــــانوا، ففـــروا

ومن الأسد كل كلـــب فـــــرور

إنمـــــا كان للكـــلاب عـــواء

حيثمـــا كان للأســـود زنيـــر

وفيليب عند الفرار ســـــــليب

فهو بالرعب مطلـــق مأســـور

وحميـــت الإســكندرية عنهــم

ورحـــى من بهـــا عليهــم تدور

حاصروها، وما الذى بان من ذَبٍّ

ـك عنها وحفظها محصــــــور

كحصار الأحزاب طيبـــة قدما

ونبـى الهـــدى بهـــا منصـــور

فاشكر الله حيث أولاك نصـــراً

فهو نعم المولى ونعم النصـــــير

فلما تم لصلاح الدين الانتصار علي الوزير شاور والفرنج أرسل إليه أسامة بن منقذ قصيدة أولها: «سلم على مصر، لا ربع بذى سلم» وفيها يقول:

الناصر الملك الموفـــــــــى بذمتـــــه

ومن ندى كفه يغنى عن الـــــــديم [1]

ومن إذا جرد البيض الصوارم فى الـ

هيجاء أغمدها فى البيض والقمـــم

وردَّ طاغية الإفرنج يحســـــــب ما

رجاه من مُلْكِ مصر كان فى الحلم

ولَّى، وراحته صـــفر [2] وقد مُلِئتْ

بعد الطماعة من يأس ومن نــدم

يصعدون على مافاتهم نفســــــا

لو لافَحَ البحر أضحى الموج كالحمم [3]

وفى السلامة، لولا جهلهم، ظفر

لمن أراد نِزَال الأسد فى الأجم [4]

كما حدثه أسامة فى قصيدة أخرى عن انتصاره على الوزير

١ـ الديم : جمع ديمة، وهى المطر يدوم فى سكون.
٢ـ صفر: خالية.
٣ـ صعد نفسه: تنفس تنفسا محدوداً، والحمم: جمع حمة، كرطبة، وهى ما أحرق من خشب ونحوه.
٤ـ الأجم: جمع أجمة، وهى مسكن الأسد.

شـاور الـذى كـاد يضـع البــلاد بين أيدى الفـرنج تحـقـيـقـا لأطماعه، فقال له:

أقمت عمـــود الدين حـــــين أماله

لطاغى الفرنج الغتم طاغى بنى سعد [1]

أفـــــدت بمـــا قدمت ملكـــا مخلدا

وذكراً مدى الأيـــام يقـــرن بالحمـــد

وذكرك فى الآفاق يسرى كأنه الصـــبـ

ـباح له نشـــــر الأُلُوَّةِ والنـــــد [2]

فلمـا ولى صـلاح الدين وزارة العـاضـد هنأه عـمـارة اليـمنى تهنئة يبدو فيها أمل الشاعر فى أن يظل مبقيا على الخـلافة الفاطمية، فقد عدد مآثره فى نصرة الخليفة الفاطمى، ودعاه بابن النبى، وصور ما كانت البلاد تعانيه من الفرنج، وذلك إذ يقول مخاطبا صلاح الدين:

لك الحسب الباقى على عقب الدهر

بل الشرف الراقى إلى قمة النسر [3]

كذا فليكن سعى الملوك إذا ســـعت

بها الهمم العليا إلى شرف الذكـــر

١ـ الغتم: جمع أغتم، وهو الذى لا يفصح شيئاً، وطاغى بنى سعد هو:شاور.

٢ـ الألوة والند: عودان يتبخر بهما.

٣ـ النسر: كوكب فى السماء

نهضتم بأعبـــــاء الوزارة نهضـــــة

أقلتم بها الأقدام من زلة العثـــــــر

كشفتم عن الإقليـــم غمتـــه، كمـــا

كسفتم بأنوار الغنى ظلمـــة الفقـــــر

حميتم من الإفرنج ســـرب خـــلافة

جريتم لها مجرى الأمان من الذعـــــر

ولما استــــغاث ابن النبى بنصــــركم

ودائرة الأنصار أضــــيق من شـــبر

جلبتم إليه النصر أوســـا وخـــزرجا

وما اشتُقَّتِ الأنصار إلا من النصـــــر

كتائب في جيرون منهـــا أواخــــــر[1]

وأولها بالنيل من شـــــاطئَى مصـــر

طلعتم فأطلعتــــــم كواكب نصـــرة

أضاءت، وكان الدين ليلا بلا فجــــر

أخذتم على الإفـــــرنج كل ثنيـــة

وقلتم لأيدى الخيل: مرى على مرى [2]

لئن نصبوا فى البر جسرا فإنكـــم

عبرتم ببحر من حديد على الجسر

١ـ جيرون: دمشق.

٢ـ هو ملك بيت المقدس Amary

طريق تقارعتم عليها مع العـــــدى

ففزتم بها، والصخر يقرع بالصخر

يد لا يقوم المسلمون بشـــــكرها

لك آل أيوب إلى آخر الدهـــــــر

بكم أمَّن الرحمن أعظم يثـــــرب

وأمن أركان الثنيـــــــة والحجــر

ولو رجعت مصر إلى الكفر لانطوى

بساط الهدى من ساحه البرِّ والبحر

وعندما أصبحت مصر خالصة لصلاح الدين كتب العماد الكاتب يهنئه مستخدما اسم يوسف حيث قال:

أهنـــــى الملــك النـــا

صر بالملك وبالنصـــــر

وما مهَّـــد مـــن بنـــيا

ن دين الحق فى مصـــر

ومـــــا أســـداه من بر

بلا عـــد، ولا حصـــر

وما أحياه من عـــــدل

وما خفف من إصر [1]

١ـ الإصر: الثقل.

وإعلاء سنا السنة فى بحبوحة القصر

قد استولى على مصـــــر

بحق يوسف العصـــــــر

وأحيا سنة الإحـــــسا

ن فى البدو، وفى الحضر

وبعد أن فتح صلاح الدين القدس رأى فيه الشعراء أمل الأمة وقائدها والذى بإمكانه توحيد كل العالم الإسلامى تحت رايته وفى هذا قال العماد الكاتب:ـ

توكل على الله الذى لك أصـــــبحت

كلاءته درعـــاً، وعصـــمته تُرســـا

ولا تنس شرك الشرق غـــربك مـــروياً

بماء الطلى من صاديات الظبا الخمسا [1]

وإن بلاد الشرق مظلمـــــة، فخـــذ

خراسان، والنهرين، والتـــرك، والفرســـا

لقد بلغ صلاح الدين فى نفوس الشعراء مبلغاً كبيراً، ورأوه جديراً بأن يكون حاكم بلاد الإسلام، لينهى تفتت وتشرذم الآمة بين الحكام الصغار بل رآه بعضهم جديراً بملك الأرض، فقال الحكيم أبو الفضل:

١ـ الطلى: الأعناق، والظبا: جمع ظبة، وهى حد السيف وغرب كل شىء: حده

ومن أحق بملك الأرض من ملك

كأنه ملك فى الخلق حنـــــــان

ويدعو له الشعر أن يصحبه التوفيق أينما كان، فيقول له الشاعر عقيل بن يحيى:

أطاعتك أطراف الردينية[1] السمر

وسالمك التوفيق فى البر والبحـــــر

وعشت مدى الأيام لا قال قـــــائل

كبابك زند فى عظيم من الأمـــــــر

ويهنىء العماد صلاح الدين بنصره على الفرنج فى دمياط، فيقول له من قصيدة:

يا يوسف الحسن والإحسان، ياملكاً

يجده صاعداً، أعداؤه هبطـــــــــوا

هُنِّيت صونك دمياط التى اجتمعت

لها الفرنج، فما حلوا ولا ربطـــــوا

ويرسل إليه قصيدة أخرى يقول له فيها:

وحطت دمياط إذ أحـــاط بهـــا

من برجوم البلاء يقذفهـــــــــــا

لاقت غـــــواة الفرنج خيبتهـــا

فزاد من حســـــــرة تأســـــفها

١ـ الردينية:الرمح

أوردت قلب القلوب أرشيَّة[1]

من القنا للدماء تنزفهـــــا

يُمضى لك الله فى قتالهم

عزيمة للجهاد ترهفهـــــا

فلما فتحت طبرية وهزم الفرنج عند حطين سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، تقدم الشعر مهنئا صلاح الدين ذاكرا فضله وبلاءه ومن ذلك ما قاله على بن الساعاتى.

جَلَتٌ عزماتك الفتح المبينـــــا

فقد قرت عيـــــون المؤمنينـــا

رددت أخيـــــذة الإســـــلام لما

غدا صرف القضاء بها ضمينا

يقـــــاتل كل ذى ملك ريـــاء

وأنت تقاتل الأعداء دينـــــا

غدت فى وجنة الأيام خــــالاً

وفى جيد العلا عقداً ثمينــا

فيالله، كم سرت قـــــــلوباً

ويالله، كـــــم أبكت عيـــــونا

وما طبرية إلا هـــــــــدى

ترفع عن أكف اللامســـــينا

١ـ أرشية: جمع رشاء، وهو الحبل، ويريد بالأرشية: السيوف والرماح

حصان الذيل لم تقذف بســـوء

وسل عنها الليالى والســـــنينا

فضضت ختامها قسراً، ومن ذا

يصد الليث أن يلج العـــــرينا

قضيت فريضة الإسلام منهـــا

وصدقت الأمانى والظنـــــونا

تهز معاطف القدس ابتهـــاجاً

وترضى عنك مكة والحجونا [1]

فلو أن الجمـــاد يطـــيق نطقاً

لنادتـــــك: ادخـــلوها آمنينا

جعلت صباح آهلها ظـــــلاماً

وأبدلت الزئير بها أنينـــــــا

تخال حماة حوزتها نســــــاء

يخوضون الحديد مقنعينـــــا

لبيضـك[2] فى جماجمهم غنَاء

لذيذ علَّم الطيـــر الحنينـــا

تميل إلى المثقفـــة العـــوالى

فهل أمست رماحاً أم غصونا

١ـ الحجون: جبل بمكة

٢ـ البيض: السيوف

يكاد النقـــع يذهلها، فـــلولا

بروق القاضبات [1] لما هدينــا

فكم حازت قدود قناك منهــا

قدوداً كالقنا: لوناً وليــــــنا

وغيد كالجــــآذر آنســــات

كغيد نداك أبكــارا وعـــونا

ولما باكرتها منك نعمــــــــى

بنان تفضح الغيث الهتـــونا

أعدت بها الليالى وهى بيض

وقد كانت بها الأيام جـونا[2]

فلا عدم الشام وســـــاكنوه

ظبى تشفى بها الداء الدفينا

سهاد جفونها فى كل فتـــح

سهاد يمنح الغمض الجفونا

فألمِم بالسواحل، فهى صور

إليك، وألحق الهام المتـــونا

فقلب القدس مسرور، ولولا

سطاك لكان مكتئباً حزيناً

١ـ القاضبات: السيوف القاطعة

٢ـ الجون: السود

أدرت على الفرنج، وقد تلاقـــت

جموعهم عليك رحى طحـــــونا

ففى «بيسان» ذاقوا منك بؤســـاً

وفى «صفد» أتوك مصـــــفدينا

لقد جاءتهم الأحـــــداث جمعــاً

كأن صروفها كانت كمينـــــــا

وخانهم الزمان، ولا مـــــــلام

فلست بمبغض زمناً خئـــــونا

لقد جردت عزماً ناصــــــرياً

يحدث عن سناه طور ســـــينا

فكنت كيوسف الصديق حقـــا

له هوت الكواكـــب ســـاجدينا

لقد أتعبت من طلب المعــــالى

وحاول أن يسوس المســـلمينا

وإن تك آخــراً، وخـــلاك ذم

فإن محمدا فى الآخـــــرينا

ومن قصيدة للشهاب فتيان الشاغورى يصف معركة حطين ما يلى...

جاشت جيوش الشرك يوم لقيتهم

يتذامرون على متون الضـــــمر

أوردت أطراف الرماح صدورهم

فولغن فى علق النجيع الأحمر[1]

فهناك لم ير غير نجم مقبـــــل

فى إثر عفريت رجيم مـــــــدبر

فمن الذى من جيشهم لم يخترم[2]

ومن الذى من جمعهم لم يؤســـر

حتىِ لقد بيعت عقائل أرهقـــت

بالسبى بالثمن الأخس الأحقـــر

لا يعدمنك المسلمون، فكـــم يداً

أوليتهم معـــــــروفها لم تتـــكر

آمنـت سربهم، وصـــنت حريمهم

ودرأت عنهم قاصـــمات الأظهـر

مـــــا إن رآك الله إلا آمـــراً

فيهم بمعـــــروف، ومنكر منكر

متواضــــعا لله جل جـــــلاله

وبك اضمحلت سطوة المتكبـــر

لم يخل سمع من هناء مهنـــىء

للمسلمين، ومن سماع مبشـــر

١ـ العلق: الدم الغليظ، والنجيع: الدم، والضمر: الفرس الخفيف الملحم
٢ـ اخترم القوم: استأصلهم

واستعظم الأخبار عنك معاشـــر

فاستصغروا ما استعظموا بالمخبر

مضت الملوك، ولم تتل عشر الذى

أوتيته مــن منجــح أو مفخــر[1]

وبعد حطين احتلت معركة فتح بيت المقدس مكانة رفيعة عند الشعراء ومن ذلك قصيدة لفخر الكتاب الحسن الجوينى يقول فيها:

جند الســـماء لهذا الملك أعـــوان

من شك فيهم فهذا الفتح برهـــان

متى رأى الناس ما نحكيه فى زمـــن

وقد مضت قبل أزمـــان وأزمـــان

هذى الفتوح فتوح الأنبياء، ومـــا

له سوى الشكر بالأفعال أثمـــان

أضحت ملوك الفرنج الصيد فى يده

صيداً، وما ضعفوا يوما، وما هـــانوا

كم من فحول ملوك غودروا، وهـــم

- خوف الفرنجة - ولدان ونســـوان

استصرخت بملكشاه طـــرابلس

فخام[2] عنها، وصمت منـــه آذان

١- المنجح: النجاح

٢- خام عنه: نكص وجبن

هذا، وكم ملك من بعـــــده نظر الإ

سلام يطوى ويحوى، وهو ســكران

تسعون عاما بلاد الله تصــرخ، وال

إسلام أنصاره صم وعميـــــــــان

فالآن لبى صلاح الدين دعوتهـــم

بأمر من هو للمعوان معـــــــوان

للناصر ادخرت هذى الفتوح، وما

سمت لها همم الأملاك مذ كـانوا

فى نصف شهر غدا للشرك مصطلما

فطهرت منه أقطار وبلـــــــــــدان

لو أن ذا الفتح فى عصر النبى لقد

تنزلت فيـــــــــه آيات وقـــرآن

خزنت عند إله العــــرش سائر ما

ملكته، وملوك الأرض خُـــــــزان

فالله يبقيك للإســـلام تحرســـه

من أن يضام، ويلفى وهو حيــران

وهذه سَنَةٌ أكـــــــرم بهـــا سَنَةً

فالكفر فى سِنة، والنصر يقظان

إذا طوى الله ديوان العبـــاد فما

يطوى لأجر صلاح الدين ديوان

ويقول الشريف النسابة المصرى من قصيدة:

أترى مناماً ما بعينى أبصـــــــر

القدس يفتح والفرنجة تكســــــر

ومليكهم فى القيد مصفود[1] ولـم

ير قبل ذاك لهم مليك يؤســــــر

قد جاء نصر الله والفــــتح الذى

وعد الرسول، فسبحوا، واستغفروا

فتح الشام، وطهــر القــدس الذى

هو فى القيامة للأنام المحشــــر

يا يوسف الصديق أنت لفتحهــــا

فاروقها عمــــر الإمام الأطهــر

وقال ابن جبير الأندلسى:

أطلــت على أفقـــك الزاهــــر

ســـــعود من الفــلك الدائــر

فأبشـــــر، فإن رقـــاب العدا

تمــــد إلى ســـيفك الباتــر

وكـــم لك من فتكـــة فيهـــم

حكت فتكة الأسد الخـــــادر[2]

١ـ مصفود: مقيد مغلول

٢ـ الأسد الخادر: الساكن فى الأجة

كسرت صليبهم عنـــــــــوة

فلله درك مــــــن كاســــــر

وغيـــــــرت آثارهم كلهــــــا

فليس لها الدهر من جــــابر

وأمضيت جدك فى غزوهــــم

فتعساً لجدهــــــم العـــــاثر

وأدبر ملكهــــــــم بالشـــــا

م، وولى كأمســـهم الدابـــر

جنودك بالرعب منصـــــورة

فناجز متى شئت، أو صـــابر

فكلهـــــم غـــرق هـــالك

بتيار عســـكرك الزاخـــــر

ثأرت لدين الهدى فى العـــدا

فآثـــــرك الله مـــن ثائر

وقمت بنصـــــر إله الـــورى

فسماك بالملك الناصـــــــر

وجاهدت مجتهــدا صـــابراً

فلله أجــرك مـــن صـــابر

تبيت الملــوك على فرشـــــهم
وترفل فى الزرد الســــابرى[1]
وتؤثر جـاهد[2] عيش الجهـــا
د على طيب عيشهم الناضــر
وتسهر ليلك فى حـــق مـــن
سيرضيك فى جفنك الساهر
فتحت المقدس من أرضـــــه
فعادت إلى وصفها الطـــاهر
وجئت إلى قدسه المرتضـــى
فخلصته من يد الكافــــــر
وأعـــليت فيـــه منار الهدى
وأحييت من رسمه الــداثر[3]
لكم ذخر الله هذا الفُتــــو
ح من الزمن الأول الغــــابر
وخصك من بعد فاروقـــــه
بها لاصطنـــاعك فى الآخــر
محبتكم ألقيــــت فى النفو
س بذكر لكم فى الورى طائر

١ـ السابرى: درع دقيقة النسج، والزرد: الدرع
٢ـ جهِد عيشه بكسر الهاء : نكد واشتد
٣ـ دثرَ الرسم: انمحى، والرسم: ما بقى من آثار الديار.

وقد أعجب الشعراء بكثير من الصفات الشخصية لصلاح الدين ومن ذلك ما قاله الشاعر سعادة ابن عبدالله

فتى مهتدى الآراء فى كل حادث

فضل لآراء الرجال بها خبـــط

ويقول فيه مرة أخرى:

صعب العريكة، سهل الراحتين له

رأى حصيف قويم غير ذى ميـــل

رأى شديد القوى، ما فيه من خور

لا بل سديد النهى ما فيه من خلل

وهو يقرن رأيه بالعزم، قال فيه أبو الفضل الجليانى:

لتظفرن بمـــا لم يحـــــــــوه ملك

أبا المظفر، حظا خطـــــــــه الأزل

دليل ذلك آراء لـــــــــك اقتــــرنت

بالحزم والعزم، لم يُخْصَصْ بها الأول

وهو دائم اليقظة والتنبه، فلا غرابة إن ظفر بما لم يظفر به سواه، قال ابن سناء الملك:

أراد ملوك الأرض سعدك، واشتهوا

تعلمـــــــه، والســـــعد لا يُتَعلَّمُ

ملكت أقاليـــــم الملوك، وإنمـــا

سهرت وأملاك الأقـــــاليم نُوَّمُ

وهو عظيم الهمة بعيد الآمال، يقول عنه ابن سناء الملك:

حتى أتى مَنْ منالُ النجـــــم مطلبه

يا طالب النجم، قد أوغلت فى الطلب

ويقابل الشدائد التى تصادفه بصدر رحب، بل يجد فى عراكها عذوبة ولذة، قال فيه سعادة بن عبدالله:

أغر، يعذب صاب[1] الحادثات له

فصابها عنده أحلى من العســل

وهو زاهد كذلك رغم سعة ملكه وعظم سلطانه، يقول الحكيم أبو الفضل:

زهدت فيما سبى الأملاك منكدرا

علما بملك نعيـــــم ما به كـدر

وطبت نفسا عن الدنيا وزخرفهــا

وجئت تقدم حيث الهول والخطر

أما صفاته الاجتماعية فقد مجد الشعراء من بينها كرمه، وأكثروا الحديث عن هذه الصفة، يقول سعادة بن عبدالله:

سمح يروح إلى الندى براحـــــة

قد أعشب المعروف بين بنانهــــا

وفتى إذا زخرت بحـــــار نواله

غرقت بحار الأرض فى خلجانها

١ـ الصاب: عصارة شجرة مرة

ويقول سبط ابن التعاويذى:

فلا يضجرنك ازدحام الوفو

د عليــــك، وكثرة ما تبـــــذل

فإنك فى زمـــــــن ليس فيـ

ـه جواد ســواك، ولا مُفْضِلُ

وقد قل فى أهله المنعمـــــو

ن، وقد كثر البائس المرمــل

وما فيه غيرك من يســتما

ح، وما فيه إلاك من يُسألُ

ويقول نشو الدولة أبو الفضل:

وكم لصلاح الدين، مذ كان، من ندى

إذا ضوَّع[1] النادى به خجل العطــــر

ويقول أبو طالب بن الخشاب:

ولقد ظمئت فلم أجد بدلا من الما

ء الزلال ســـــــوى مواطر سحبه

ويقول علم الدين الشاتانى:

يمينك فيها اليمن، واليسر فى اليسرى

فبشرى لمن يرجو الندى منهما، بشرى

١ـ ضاع المسك: تحرك، فانتشرت رائحته، وتضوع أيضاً.

ويقول سبط بن التعاويذى:

قسما لقد فضل ابن أيوب الحيا[1]

بســـماح كف بالنضـــار هتون[2]

مخلوقة من سؤدد وندى، وقــد

خلق الأنام ســـلالة من طـــين

يا من إذا نزل الوفود ببــــابه

نزلوا بجمٍّ من نـــداه معـــين

وقال ابن الدهان:

بيدى فتى لو أن جود يمينــــــه

للغيث، لم يك ممسكا عن موضع

فإذا تبسم قال: يا جود، اندفـــق

فيضا، ويا سحب الندى، لا تقلعى

ومجدوا فيه كذلك صفة الحلم، يقول فيه سعادة:

كريم إذا ما جاءه معدم حبا

حليم إذا ما جاءه مجرم عفا

ويقول فيه نجم الدين يوسف بن الحسين:

عزم وحزم أنسيا ما كـــان من

عزم ابن مرداس وحلم الأحنف

١ـ الحيا: المطر

٢ـ النضار: الذهب، وهتن المطر: قطر

أما سياسته لرعيته فتتسم بالعدل، يقول فيه سبط بن الجوزى:

الملك العادل الذى كشف الله

به هـــــم كـــــل مكـروب

ويقول أسامة بن منقذ:

وسرت سيرة عدل فى الأنام كمـــا

قضى به الصادقان: الشرع والسُّوَر

وبالتـــواضع الذى لا يخـــدش العـــزة، واللين الذى لا يمس الهيبة، يقول له سبط بن التعاويذى:

لك عفة فى قدرة، وتواضع

فى عزة، وشراسة فى لين

وبهـذه الصـفـات اسـتطاع أن يملك قلوب شـعـبـه بـالحب والمهابة يقول فيه أسامة بن منقذ:

ملك القلوب محبة ومهـــــابة

فاقتادها طوعا بهيبة غاصب

ويقول فيه الحكيم أبو الفضل:

ومن أحق بملك الأرض من ملك

كأنه ملـــــك فى الخـــلق حنَّان

وكانت صورة صلاح الدين بطلا مجاهداً من أبرز الصور التى احتفظ بها الشعر له، كتب إليه أسامة بن منقذ يقول:

تَهَنَّ يا أطـــول المــــلوك يدا
فى بسط عدل، وسطوة ونـدى
لا تستقل الذى صنعت، فقــــد
قمت بفرض الجهاد مجتهـــدا
وجبت أرض العدى، وأفنيت من
أبطالهم ما يجاوز العـــــــددا
وما رأينا غزا الفــــرنج من الـ
ملوك فى عقر دارهــــم أحدا

وقال الرشيد بن النابلسى فى قصيدة له:

ما أبهج الدين والدنيا بمـــالكها الصـ
ـديق يوسف، لا لاذت به الغيــــــر[1]
ملك تساوى جمادى فى الجهاد، وتمـ
ـوز لديه، وضاهى ناجراً صـــــفر[2]
فليس يثنيــــه حر إن توقد عـــن
رضا الإله، ولا إن أغدق المطـــــر
ولا ينهنهــــــه عمـــا يكـــابده
ضج، أعيذ معاليه، ولا ضـــــجر
ولا يرى الروح إلا ظهــــر سلهبة
فى بطن معركة مركوبهـــا وعر[3]

١ـ غير الدهر: أحداثه
٢ـ تموز: شهر يوليه، والناجر: كل شهر من شهور الصيف
٣ـ الروح: الراحة، والسلهبة من الخيل: ما عظم وطال عظامه

صبر جميل، كطعم الشهد فى فمه

وعند كل مليـــك طعمه الصبر[1]

وهو فى ميدان القتال شجاع، قال فيه أسامة بن منقذ :

يعطى الألوف، ويلتقيها باسما

طلق المحيا فى القنا المتشاجر

يواجـه العـدو بقلب ثابت صـادق اليـقين، أرسل إليـه فـخـر الكتاب الجوينى قصيدة منها :

لك قلب عند اللقاء مكـــين

وله من تقاه ألف كمــــــين

يا مليكا يلقى الحروب بحول

مستعصما وصدق اليقـــين

وهو فى قلب عدوه مهيب مرهوب الجانب، حتى صار اسمه يبـعث الرعب فى نفس العدو، ويدفـعه إلى الفرار والهـزيمة، قال أبو الفضل الجليانى:

فكم مليك لهم شق البحار سرى

لينصر القبر، والأقدار تخــذله

وكم ترحل منهم فيلق بفـــــلاً

إلى الخوامع ألقاه ترحـــــله[2]

١ـ الصبر بكسر الباء: الدواء المر

٢ـ الخوامع: جمع خامعة، وهى الضبع، لانها تخمع، أى تمشى كأن بها عرجًا.

استصرخوا الأهل، والعدوى تمزقهم

واستكثروا المال، والهيجا تَنَفُلهُ[1]

كم قد أعدوا، وكم قد فل جمعهم

من غير ضـــرب ولا طعن يُزيِّلُهُ

وإنما اسم صلاح الدين يذكر فى

جيش العدو، فيسبيهم تخيـــله

وقال الحسين بن عبدالله بن رواحه:

لقد خبر التجارب منه حــزم

وقلب دهره ظهراً لبطــــن

فساق إلى الفرنج الخيل برا

وأدركهم على بحر بســـفن

يرون خياله كالطيف يســرى

فلو هجعوا أتاهم بعد وهن[2]

أبادهم تخوفه، فأمســـى

مناهم لو يبيتهم بأمـــن

وهو خبير بالحرب، فقيه بأمورها، أرسل إليه من مصر نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور قصيدة يقول له فيها:

١ـ تنفله: تجعلة غنية.

٢ـ الوهن: الهزيع من الليل

ملك له فى الحرب بحر تفقه

وله غداة السلم زهد تصوف

وعليه أنزل فى الجهاد مفصـــــل

فلذاك يقرؤه بسبعة أحـــــــرف

ولم لا يكون مرهوب الجانب وقد:

تملك حولهم شرقاً وغـــــــرباً

فصاروا لافتتاصٍ تحــــت رهن

وذلك لأنه ملك مصر والشام والإفرنج بينهما.

وتحدث الشعراء كثيراً عن جيشه الضخم، فيصوره أسامة ابن منقذ بأنه إذا مشى خلته لجة من الماء وذلك إذ يقول:

وإذا سرى خلت البســـيطة لُجَّة

أمواجها بيض[1] وبيض قواضب[2]

ويتحدث سعادة بن عبدالله عن هذا الجيش، فيصفه بأنه كالجراد لا يحصى له عدد، وذلك إذ يقول متحدثاً عن الجيش:

عرمرم كالدبى [3] الطيار منتشـــــر

تحصى الرمال، ولا يحصى له عدد

تسمو عليه سماء من عجـــاجته

مبنية من قنـــاة تحتهـــا عُمُدُ

١ـ البيض: جمع بيضة وهى الخوذة
٢ـ القواضب: السيوف
٣ـ الدبى: الجراد

سماء نقع لشيطان العـــــدو بها

من الأســــنة شـــهب كلها رَصَدُ

وفى دياجيه نار من صـــــوارمه

تكاد تقطر ماء، وهى تتقـــــد

نار تشب على أيدى غطـارفة [1]

لا يبرق الجو إلا كلما رعـــــدوا

ما جِنٌّ عبقر جن كلما عــــزفوا

ما أسد بيشة أسد كلما حـــردوا [2]

من كلِّ أروع أما رمحــــه ثَمِـــلٌ

لا يســتفيق وأمــا ســـــيفه غرد

فى كل يوم جـــلاد لـــو ألم بــه

عمرو بن ود [3] عداه الصبر والجلد

شم بالشآم سيوفا من عـــزائمهم

إذا غمدت المواضى ليس تتغمـــد

ولا تخف، فالعوالى شوكها ثمـــر

حلو الجنى، والمعالى صابها شـهد

١ـ غطارفة: جمع غطريف: وهو السيد الشريف

٢ـ حرد: غضب، وعبقر: موضع كثير الجن، وبيشة : واد فيه موضع مشجر كثير الأسد.

٣ـ عمرو بن ود: فارس قريش وشجاعها فى الجاهلية وأدرك الاسلام ولم يسلم

واخطُب بحد المواضي كل شامخة

فى أنفها شَمَمٌ، فى جيدها غـيد

فمن يكن بالمواضى خاطبا أبـدا

زفت إليه بلاد كلهـــــا خـــرد[1]

ويصف مرة أخرى هذا الجيش، فيقول:

بأرعن مثل رعن الطود مجـــــر[2]

تضيق به من الأرض الرحـــــاب

خميس سوف ترضى البيض عنه

إذا زأرت ضراغمه الغضـــــاب

تكر على الصقور به أســـــود

عليها للقنا الخطى غـــــاب

كأن مثار قسطله[3] **عليهـــــم**

إذا طلعت شموسهم ضـــــباب

ويصفه أسامة بن منقذ، فيقول:

وبدلت أموال الخـــزائن بعدما

هرمت وراء خواتم الخـــــزان

فى جمع كل مجاهد، ومجـالد

ومبارز، ومنازل الأقـــــران

رحم الله صلاح الدين رحمة واسعة جزاء ما قدم للإسلام والعروبة من انتصارات ومآثر تخلده فى سجل العظماء

١ـ خرد: جمع خريدة، وهى الحيية.

٢ـ الأرعن: جبل ذو ألف يتقدمه، والطود: الجبل، والمجر: الجيش العظيم

٣ـ القسطل: الغبار

المراجع

اسم الكتاب	اسم المؤلف
١ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية	القاضى بن شداد
٢ـ صلاح الدين الأيوبى	د. سعيد عاشور
٣ـ التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين	نظير سعداوى
٤ـ صلاح الدين الأيوبى	إبراهيم طرخان
٥ـ العدوان الصليبى على مصر والشام	جوزيف نسيم
٦ـ ظهور صلاح الدين	هاملتون جب ـ ترجمة : سعيد عبدالمحسن
٧ـ مائة أوائل	سهيل زكار
٨ـ العلاقات بين الشرق والغرب: أضواء على تاريخ الحروب الصليبية	د. محمد نصر عبدالرحمن
٩ـ الناصر صلاح الدين	محمود عزت موسى
١٠ـ صلاح الدين الأيوبى بين شعراء عصره وكتابه	د.أحمد أحمد بدوى

الفهرس

المؤلف في سطور

محمد الشافعى

- كاتب صحفى بدار الهلال
- رئيس تحرير روايات الهلال.
- عمل رئيس تحرير ومستشار تحرير لعدد من الصحف مثل:-
  - رئيس تحرير جريدة أنباء الشرق الأوسط.
  - رئيس تحرير جريدة النداء الدولية.
  - رئيس تحرير جريدة أتومبيل الشارع العربى.
  - مدير تحرير جريدة القاهرة.
  - مستشار تحرير جريدة الشارع العربى.
  - مستشار تحرير جريدة النور.
- نشر مقالاته فى العديد من الصحف والمجلات المصرية والعربية مثل:-
  - «الأهرام - الحياة - الشرق الأوسط - الأسبوع - العربى - الجيل - المجالس - البديل - نهضة مصر - الوطن العربى - سيدتى... إلخ».
- صدر له أكثر من «٢٠» كتاباً تتوزع ما بين الدراسات السياسية والتاريخية والدينية والثقافية.. ومنها ثمانية كتب تقدم رصداً تفصيلياً لكل مراحل النضال فى مصر وهى:-
  - «دنشواى.. مائة عام من العزة».
  - شموس فى سماء الوطن «طبعتان».
  - السويس «مدينة الأبطال «ثلاث طبعات».
  - بورسعيد بوابة التاريخ «طبعتان».

● الإسماعيلية أرض الفرسان «طبعتان».
● قناة السويس.. ملحمة شعب.. وتاريخ أمة
● السد العالى.. هرم الإدارة المصرية.
- له العديد من الدراسات الدينية ومنها:-
● مخابرات دولة الرسول «ثلاث طبعات».
● حقوق الإنسان فى الإسلام.
● السحر والجان بين المسيحية والإسلام.
- له العديد من الكتب فى التراجم والسيرة الذاتية والدراسات الأدبية ومنها:-
● طلعت حرب.. قصيدة فى حب الوطن.
● عبدالمنعم رياض.. فارس الرحلة المستحيلة.
● بيرم التونسى.. ضمير الشعب.
● الثلاثية المبدعة.
● وجوه وأقنعة.
● ثوار ومشاغبون.
● جوارح ومجاريح.
- له العديد من الدراسات الفنية والسيرة الذاتية فى عالم الفن حيث أصدر أو شارك فى كتب عن:-
● يوسف وهبى - عبدالحليم حافظ - عقيلة راتب - أحمد زكى.
● صدر له ستة كتب ضمن المشروع الثقافى الرائد (مكتبة الأسرة).
● أحد مؤرخى الحركة الوطنية فى مصر.
● أقيمت له عشرات الندوات فى كل ربوع مصر سواء فى بيوت وقصور الثقافة أو فى الجامعات أو مراكز الشباب.
● أستاذ الصحافة فى كلية الآداب جامعة المنوفية.
● معد ومقدم البرنامج التليفزيونى «شموس فى سماء الوطن» على قنوات دريم.

طبع بمطابع دار الجمهورية للصحافة

رقم الإيداع :

هذا الكتاب



يتـــشـــابه الوضع العـــام للعـــرب والمسلمين - الآن - إلى حد التماثل.. مع وضعـهم فى عـصـر صـلاح الدين الأيوبى.. فـــالتـــفكك والتـــشـــرذم والتـــصـــارع.. مـــشكلات تنبع من الداخل.. بينما الاحــتــلال والهــيــمنة والاســـتـــهـــداف والإســـاءة للإســلام ورسوله مشكلات تأتى من الخـارج.. لتؤكد صـحـة الحكمة التى تقول «ما أشبه الليلة بالبارحة».. ولأننا نعيش «لحظة فـاصلة» مـثل التى عـاشـهـا صـلاح الدين تماما فليس أمـامنا إلا «اسـتنسـاخ» الدور والإنجاز والإرادة والأهــداف الـتــى تمـثـلـت فـى هـذا الرجل.. ويأتى فى مـقـدمـة الأهداف التى يتحتم استنساخها ذلك الإصرار على الوحدة ونبذ الفرقة.. حيث يمكن تلخيص وإيجاز مشوار صلاح الدين فى ذلك الشـعـار النبيل «الاتحـاد قبل الجهاد».

(كتاب الجمهورية)

الثمن ١٠ جنيهات

كتاب الجمهورية

الناصر صلاح الدين .. الاتحاد قبل الجهاد

محمـــد الشـــافعى